11

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
السلسلة: موازين القرآن.
اسم الكتاب: كونوا قوامين بالقسط: كيف يجعل القرآن العدل دينًا؟.
رقم الكتاب في السلسلة: الحادي عشر.
الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م
© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
ويرحب المركز بإعادة طباعة هذا الكتاب ونشره كما هو، دون تعديل أو حذف أو إضافة، بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من المركز.
هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).
يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه ومشاركته وإعادة نشره لأغراض غير تجارية، مع ضرورة الإشارة إلى صاحب الحقوق والمصدر، وعدم توزيع أي نسخة معدلة أو مترجمة منه دون الحصول على إذن.
رابط الترخيص:
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar
النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب
https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/konoa-koamyn-balkst
لا يشمل الترخيص أي مواد مملوكة لأطراف أخرى إلا إذا صُرّح بذلك.
إعداد السلسلة
مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية
الإشراف العلمي على المركز
أ.د. عبدالله آل سيف
الفريق العلمي للمركز
د. عبدالله سالم باهمام
د. صهيب لموح
د. شادية عبدالله بابكر
إسلام موسى
عادل بافرج
المراجعة والتحكيم العلمي
راجع كتبَ السلسلة وحكَّمها مجموعةٌ من الأكاديميين والمختصين
كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط** — هذا الكتاب
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

بين يدي السلسلة والكتاب

مركز البحوث والدراسات

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز البحوث والدراسات في جامعة ابن كثير الدولية للعلوم الإنسانية والإسلامية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤية صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع، من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة موازين القرآن: مشروعًا تأليفيًا يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحيٌ مبين تأتي شارحةً ومجسدةً ومؤسسةً للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى، ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

العدل من الكلمات التي يسهل أن يوافق عليها الإنسان ما دام واقفًا خارج القضية. يعرف أن الإنصاف حسن، ويستنكر الظلم، ويرى التحيز قبيحًا. لكن الامتحان الحقيقي يبدأ حين يصير الحق له أو عليه، وحين يكون صاحبه قريبًا يحبه أو خصمًا يؤلمه، وحين تدخل المصلحة والشفقة والغضب والهوى في اللحظة نفسها التي يظن فيها أنه لا يزال يزن بالميزان الواحد.

من هنا ينطلق سؤال هذا الكتاب: كيف يجعل القرآن العدل دينًا؟ وما الذي يصنعه القرآن في القلب حتى لا يصبح موقع الإنسان من القضية جزءًا خفيًا من معيارها؟

لا يريد الكتاب أن يقدم موسوعةً في مجالات العدل، ولا أن يجمع أبواب القضاء والسياسة والمعاملات والأسرة تحت عنوان واسع، ولا أن يمنح القارئ ميزانًا يخرج به إلى الناس ليحصي مظالمهم ويبقى هو خارجه. طريقه أقرب إلى النفس وأشد حرجًا: أن يضع القارئ نفسه داخل الميزان، وأن يتتبع المواضع التي يمكن فيها للحق أن يتغير في عينه من غير أن يشعر أنه اختار الظلم أصلًا.

ولهذا يتقدم القرآن في هذا الكتاب بوصفه منشئ الميزان لا شاهدًا عليه. يبدأ من شهادة الله لنفسه بأنه سبحانه ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، ومن الكتاب والميزان اللذين أنزلهما ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، ثم ينقل الأمر إلى العبد: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135]. ومن هذا الأصل تتكشف ضغوط الميزان واحدةً بعد أخرى: النفس والقرابة، والشنآن، والهوى، والطريق الذي يصل به الخبر والدليل إلى الحكم، ثم البخس الذي لا ينكر الحق كله وإنما ينقصه بعد أن عُرف.

وتأتي السنة وحيًا مبينًا يجعل هذه المعاني مرئيةً في الحياة: في بيت يُطلب فيه العدل بين الأولاد، وفي شفاعة تمس صاحب مكانة، وفي خصومة يغضب فيها الإنسان ولا يتلون معها الميزان، وفي قضاء قد يكون أحد الخصمين فيه ألحن بحجته، وفي حق يدخل اليد بحكم ظاهر ثم يبقى عند الله قطعةً من النار إن كان صاحبه يعلم أنه ليس له. فلا تبقى القاعدة بعيدةً عن الجسد والبيت والمال واللسان والقرار.

ويستعين الكتاب بأصول التفسير وكلام أهل العلم في تحرير دلالة النصوص وسياقاتها، ويفرق ما أمكن بين دلالة الآية في موضعها وبين ما يستنبط منها من هداية أوسع؛ حتى لا يتحول التأمل إلى تحميل للنص ما لا يحتمل، ولا تتحول الحراسة العلمية إلى عبارات تبرد سلطان الوحي في القلب.

ولا ينتهي القيام بالقسط في هذا الكتاب عند اكتشاف الانحياز أو التوقف عن الظلم. فالحق الذي نُقص له صاحب، والمظلمة القديمة لا يمحوها مجرد الوعي بها. لذلك يمضي الكتاب إلى سؤال أشد عملية: ماذا بقي؟ وما الذي تستطيع أن ترده أو تصلحه قبل أن يأتي يوم لا يكون فيه القصاص بدينار ولا درهم،

بل بالحسنات والسيئات؟ ثم لا يترك القارئ في الخوف وحده، يفتح له الوجه الآخر من القسط: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9]، و«إن المقسطين عند الله على منابر من نور».

فهذا الكتاب ليس دعوةً إلى الشك في كل حكم يصدر منك، ولا إلى مساواة عمياء تمحو الفروق التي أثبتها الله، ولا إلى حياة باردة بلا محبة ولا غضب ولا ولاء. هو دعوة إلى أن تبقى هذه كلها تحت حكم أعلى منها: أن يكون لك ميزان واحد لأن ربك واحد، وأن تعرف في كل مرة يتغير فيها وجه صاحب الحق أن الذي ينبغي ألا يتغير هو الحق نفسه.

محتويات الكتاب

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ [النساء: 135]..... 1

وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ [النساء: 135]..... 7

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ [المائدة: 8] 14

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا [النساء: 135]..... 21

ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ [البقرة: 282] 31

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ [هود: 85]..... 41

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الحجرات: 9] 50

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ [النساء: 135]

قبل أن يصل الأمر إليك، يعرّفك القرآن بمن تأتمر بأمره:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[آل عمران: 18].

قف عندها قليلًا. في مقام الشهادة بالتوحيد نفسه يأتي وصفه سبحانه: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]. والقسط الذي سيطالبك به القرآن بعد ذلك ليس قيمة بشرية عائمة يصوغها الناس ثم يطلبون من الوحي أن يزكيها؛ إنه عبودية لله الذي لا يظلم. وفي الحديث القدسي الصحيح يقول الله تعالى: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا**» رواه مسلم. يبدأ الطريق إذن من معرفة الرب قبل أن يبدأ من تهذيب السلوك: ربٌّ قائم بالقسط، منزَّه عن الظلم، يأمر عباده ألا يتظالموا. فإذا قام المؤمن بالعدل لم يكن يجمّل أخلاقه فحسب؛ كان يتعبد لله بشيء يحبه الله ويأمر به.

ويزيد القرآن هذا الأصل رسوخًا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]. هذه ليست حقيقة بعيدة عن حياتك وأنت تزن الناس. ربك لا ينقص أحدًا مثقال ذرة، وأنت أكثر ما تحتاج إلى الخوف من النقص حين يكون في يدك تقدير لإنسان، أو حق له، أو حكم على فعل من أفعاله. وكلما عرفت عدل الله ازداد قبح أن تستعمل ما وهبك إياه لتصنع به وزنًا يخدمك: عقلًا تسوّغ به ميلك، أو مكانةً تثقل بها كفة من تحب، أو فصاحةً تجعل بها الخطأ الصغير في خصمك أكبر مما هو، والخطأ نفسه في قريبك أهون مما هو.

ولهذا يجيء الأمر صريحًا: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29].

الأمر لا يتقلب بتقلبك. قد يسهل عليك الإنصاف في موقف ويثقل في آخر، وقد تحب النتيجة إذا وافقتك وتضيق بها إذا وقعت عليك؛ أما القسط فلا يستمد وزنه من راحتك. هذا أول ما يحرر المؤمن من نفسه: أن يعرف أن فوق ميله أمرًا، وفوق نظره ميزانًا، وفوق رضاه رضا الله.

ثم يضع القرآن القسط في قلب رسالة الوحي نفسها:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

الكتاب، والميزان، ثم قيام الناس بالقسط. الوحي لا يريد أن تبقى الحقيقة معلومة محفوظة في طرف الذهن؛ يريد أن تصير وزنًا يعمل حين تختلط المصلحة بالعاطفة، وحين يدخل الإنسان نفسه بين المبدأ وتطبيقه. فكثير من الناس لا تنقصهم كلمة «العدل»، وإنما تنقصهم القدرة على إبقائها كما هي عندما تتغير الأسماء.

ولو كان المقصود أن تعرف القسط فقط لكفى أن تحفظ أحكامه وتصف فضله. لكن الآية تنقل المعرفة إلى الجسد والحياة: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]. وبين أن تعرف الميزان وأن تقوم به مسافة يظهر فيها صدق العبودية؛ لأن المعرفة قد تبقى ساكنة ما دامت لا تعارض شيئًا تحبه، أما القيام فيبدأ حين يطلب منك الحق أن تخالف عادةً ألفتها، أو انطباعًا استقر، أو جهةً تميل إليها. هناك لا يعود السؤال: هل أعرف أن العدل حسن؟ بل: هل يبقى ما عرفتُه حاكمًا حين تكون له كلفة؟

حين يتغيّر صاحب الحق

في نقاش عابر يقول شخص لا ترتاح إليه كلامًا مختلطًا: فيه وجه صواب ووجه خطأ. تقع عينك على موضع الخطأ سريعًا، ويبدو لك كافيًا لتجاوز بقية كلامه. بعد قليل يقول شخص قريب منك كلامًا يشبهه؛ فإذا ذهنك يتأنى، ويفصل بين ما أصاب فيه وما أخطأ، ويبحث عن أحسن وجه يمكن أن يُحمل عليه قوله. لم تعلن لنفسك ميزانين، ولم تقل: سأظلم الأول وأحابي الثاني. أنت في الحالتين مقتنع أنك تريد الحق. لكن شيئًا في طريقة الوزن تبدل بهدوء حين تبدل القائل.

لم يتغير الحق. الذي تغير هو موقع صاحبه منك.

ويبدأ الامتحان قبل أن تبدأ الخصومة الكبيرة. النفس لا تحتاج إلى قرار صريح بالجور؛ يكفي أن تمنح كلام القريب فرصة أطول للفهم، وأن تحاكم كلام البعيد من أول موضع ضعف فيه. يكفي أن يكون الخطأ عند هذا «زلة» وعند ذاك «دليلًا على طبعه»، أو أن يكون الصواب من هذا جديرًا بالتأمل ومن ذاك شيئًا عابرًا لا يستحق الوقوف. الفارق قد يكون صغيرًا في كل مرة، لكنه يكشف سؤالًا أكبر: من الذي يحدد الوزن حقًا؟

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7–9].

الآيات في الميزان والوزن، وفيها أمر صريح بإقامته بالقسط وألا يُنقص. ومن هذه الصورة المحسوسة يتهيأ القلب لمعنى سيصحب ما يأتي: لا يستقيم ميزان إذا صار له وجهان بحسب الجهة. وحين تضع ذلك

إلى جوار مواضع القرآن الأخرى، تجمع أمامك ثلاثة أصول متساندة: الله ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، وأنزل الكتاب والميزان ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، ثم جاء النداء إليك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135].

لفظ ﴿قَوَّامِينَ﴾ [النساء: 135] يجاوز موقفًا عادلًا يقع مرة ثم ينقضي؛ إنه قيام يتكرر كلما عادت دواعي الميل. قد تمر عليك أيام لا تشعر فيها بصعوبة القسط لأن شيئًا لم يضغط على الميزان، ثم تأتي كلمة تمس صاحبًا، أو حكم يجرح صورةً تحبها عن نفسك، أو موقف تجد فيه قلبك قد سبقك إلى أحد الطرفين. عندها يظهر معنى القيام: أن لا تجعل الميل الأول نهاية النظر، وأن تعود إلى المعيار قبل أن تبني عليه حكمك.

وليس معنى ﴿قَوَّامِينَ﴾ [النساء: 135] أن المؤمن لا يخطر له ميل، ولا أن نظره يصيب من أول لحظة في كل قضية. إنما فيها معنى أثقل وأصدق: أن يكون رجوعه إلى القسط متكررًا حتى يصير من صفته. قد ينتبه بعد لحظة، وقد يحتاج إلى مراجعة، وقد يكتشف أنه أعطى طرفًا من العذر ما لم يعطه غيره؛ ثم لا يحرس ميله لمجرد أنه صدر منه. هذه القدرة على العودة جزء من القيام نفسه، لأنها تكشف أن المرجع لم يكن النفس، بل الحق الذي ترجع النفس إليه.

والقيام ليس بطولة نادرة لا تظهر إلا في القضايا الكبيرة. يتكون القوّام في الخفاء قبل ذلك بوقت طويل: حين يراجع حدّة عبارة كتبها لأن الدليل لا يحمل كل هذه الحدّة، وحين يفرق بين خطأ الشخص وبين كل شخصه، وحين يستطيع أن يقول لمن يحبه: أصبت هنا وأخطأت هنا، من غير أن يرى في ذلك خيانة للمحبة. هذه الحركات الصغيرة ليست هامشًا؛ هي التي تدرّب القلب على ألا يجعل علاقته بالناس جزءًا خفيًا من معيار الحق.

لمن تقوم؟

ثم إن الآية لا تترك القيام بلا وجهة: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135].

هذه الكلمة تغيّر موضعك كله. قد لا يعلم أحد أنك كدت ترد وجهًا من الحق لأنه جاء على لسان من لا ترتاح إليه ثم أمسكت نفسك وأنصفته. وقد لا يعرف أحد أنك أعدت النظر في حكم أحببته لأن دليله لم يعد يقنعك. وربما لا يلاحظ من حولك شيئًا من المعركة أصلًا. لكن قيامك لم يكن لهم حتى يكون رضاهم هو الجائزة. أنت تشهد لله.

وكلما رسخ هذا المعنى خفَّ سلطان الجمهور على ميزانك. قد يفرح من حولك بعبارة قاسية في خصمهم، وقد ينتظر منك القريب أن تراه دائمًا من جهته، وقد تشتهي النفس أن تحفظ صورتها فلا تتراجع أمام الناس. أما ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135] فتضع فوق هذه الضغوط كلها وجهةً واحدة: ماذا يرضى الله أن يكون موقفي من هذا الحق؟ وحين يستقر السؤال لا تزول العلاقات، لكنها تفقد حقها في أن تعيد تعريف الصواب والخطأ.

ويأتي الخطاب في موضع آخر بالترتيب الآخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8]. في آية النساء شهادة لله، وفي المائدة قيام لله. يتبدل ترتيب الألفاظ وتبقى الوجهة واحدة: لا يكون القسط قائمًا في القلب حقًّا إذا كان رضا الناس أو رضا النفس هو الجهة التي يقوم لها.

عد إلى النقاش نفسه بعد أن سمعت الأمر. هذه المرة لا تبدأ من القائل، بل من القول. ما الذي فيه من حق؟ وما الذي فيه من خطأ؟ ولو أردت أن تختبر نفسك، بدّلت الاسمين في ذهنك: أكنت سأعطي هذه العبارة الوزن نفسه لو خرجت من الشخص الآخر؟ ثم تثبت للصواب قدره من غير أن يصحح لك الخطأ، وتثبت الخطأ من غير أن تجعله ذريعة لإسقاط كل ما عداه. لم تتغير مشاعرك بالضرورة، ولم يصبح من لا ترتاح إليه قريبًا منك؛ الذي تغير أن مشاعرك لم تعد هي التي تمسك بالميزان.

وهذا مهم، لأن القوّام ليس إنسانًا بلا محبة ولا غضب ولا مصلحة. القرآن يخاطب إنسانًا كامل الإنسانية، ثم يأمره أن يجعل هذه المشاعر تحت حكم الله. وجود الميل في نفسه لا يعني أن القسط صار مستحيلًا، كما أن محاسبة النفس لا ينبغي أن تنقلب إلى وسواس يشلها عن كل حكم. تتروى، وتراجع، ثم تقوم بما ظهر لك من الحق. وإذا تبين لك بعد ذلك أنك أخطأت، رجعت؛ لأن صدق القيام ليس في ادعاء عصمة التقدير الأول، بل في بقاء الحق أعلى من تقديرك.

ما لا يراه الناس

ومن أعمق ما يعين على هذا القيام أن تعرف أن الله يرى ما لا يراه الناس. تختم آية النساء بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]. قد يصفق الناس لحكم مائل لأن دوافعه خفيت عليهم، وقد يلومونك على إنصاف لأنهم لم يعيشوا ضغط اللحظة. يرون النتيجة، أما الله فيعلم ما الذي أعطيته وزنًا في قلبك وما الذي خففته، ويعلم متى وسعت لصاحبك باب العذر ثم ضيقته في وجه غيره.

﴿خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

إذا استقرت هذه الكلمة في القلب تغير شيء في طريقة النظر إلى العدل. يصبح المطلوب أن تكون منصفًا في الموضع الذي لا يكتشف الناس ما دار فيه من ميل ومقاومة. تستطيع أحيانًا أن تصوغ تبريرك بذكاء حتى يقتنع من حولك، ويبقى بينك وبين الله أنك تعرف أن الوزن لم يكن واحدًا. وقد تخسر رضا قريب لأنك لم تجعل قربه سببًا لترجيح ما لا يترجح. المراقبة هنا لا تبرد القلب؛ إنها تحرره من عبودية الصورة.

والسنة تنقل هذا القيام من الفكرة إلى امتداد الحياة. يصف النبي ﷺ المقسطين بأنهم «**الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**» رواه مسلم. لم يحصر العدل في قضاء مشهور أو ولاية كبيرة؛ يدخل الأهل، وتدخل كل مسؤولية جعلها الله في يد الإنسان. فالقسط يتربى في البيت، وفي العمل، وفي التقدير الصغير الذي قد لا يسمع به أحد. ومن لم يتعلم أن يجعل المعيار واحدًا في هذه المواطن سيجد الثقل أكبر حين تمس القضية مكانته أو جماعته أو من يحب.

ومع ذلك فالقسط ليس مساواة عمياء بين المختلفات. الميزان الواحد لا يعني أن النتائج كلها واحدة؛ الحق والباطل لا يستويان، والمصيب والمخطئ لا يُجعلان سواء لتبدو محايدًا. قد يكون من العدل أن تقول بوضوح إن طرفًا أخطأ، وقد يكون من الظلم أن تضيف إلى خطئه ما لم يقع. وقد يكون من العدل أن تثبت لإنسان حقًا، من غير أن يمنعك ذلك من تسمية خطئه خطأ. القسط لا يمحو الفروق؛ إنما يمنعك أن تصنع الفروق التي يحتاجها هواك ثم تسميها عدلًا.

وللقوة وجه آخر. ليست القوة دائمًا أن تثبت على ما قلت أول مرة؛ أحيانًا تكون في أن تقول: أخطأت. فإذا ظهر لك أن حكمك كان أثقل على إنسان لأنه بعيد عنك، أو ألين على آخر لأنه قريب، لم يكن الرجوع سقوطًا من مقام القوّام، بل من مقتضاه. الموقف السابق لا يصبح حقًا لأنه موقفك، والاعتراف بالخطأ لا يهزمك إذا كانت غايتك أن يبقى الحق أعلى منك.

ومع تكرر هذه المواقف يتبدل موضع القوة في النفس. لا تعود محتاجًا إلى أن ينتصر طرفك في كل جزئية حتى تشعر أنك بخير، ولا إلى أن يكون من تحبه مصيبًا في كل موقف حتى تحافظ على محبتك له، ولا إلى أن يكون خصمك مخطئًا في كل شيء حتى يثبت لك أنك كنت محقًا في خلافك معه. تستطيع أن تعطي كل موضع وزنه؛ لأن هويتك لم تعد معلقة بانتصار أحد الطرفين، بل بقيامك لله.

حين يصبح الميزان للناس فقط

والخطر الأكبر ليس أن يعجز الإنسان عن فهم معنى القسط؛ قد يفهمه جيدًا ثم يستخدمه ميزانًا للناس فقط. يرى انحيازهم ولا يرى انحيازه، ويحصي ما نقصوه من حقه ولا يسأل عما نقصه هو من حقوقهم، ثم يبقى خارج الميزان في موضع القاضي على الجميع.

القرآن لا يترك لك هذا المخرج طويلًا. بعد أن يأمر المؤمنين بالقيام بالقسط والشهادة لله، ينقل الامتحان إلى أقرب موضع يمكن أن يتخفى فيه الميل، إلى موضع لا تستطيع أن تشير فيه إلى أحد خارج نفسك:

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: 135].

هنا يبدأ الامتحان.

وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ [النساء: 135]

لأنك الآن صرت طرف القضية.

قبل هذه اللحظة كان من الممكن أن تتحدث عن العدل وأنت واقف خارجه: مبدأ تعرفه، وميزان تريد من الناس أن يلتزموا به، وفضيلة يسهل عليك أن تحبها ما دامت لا تطلب منك شيئًا. لكن القرآن، بعد أن قال لك: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135]، لم يتركك في هذا الموضع المريح.

هذه الكلمات القليلة تغيّر اتجاه النظر كله. العدل ليس شيئًا تراقب به الناس فقط؛ قد يأتيك في صورة شهادة تخسر بها، أو حق تعترف به على نفسك، أو حكم يوجع قريبًا منك، أو اعتراف بأن من تحب ليس له في هذه الواقعة ما كنت تتمنى أن يكون له.

وأصعب ما في الحق على النفس أنه لا يدخل دائمًا في صورة ظلم فاضح. قد يكون حقًا صغيرًا تعرف أنه عليك، لكن الاعتراف به ينقص صورتك أمام شخص. أو خطأً دافعت عنه طويلًا، وصار الرجوع عنه أثقل من الخطأ الأول. أو منفعةً استقرت في يدك، ثم تبين لك أن جزءًا منها ليس لك. وربما لا يطالبك أحد، ويبقى بينك وبين الله أنك تعلم.

هنا لا تكفي العبارة العامة: أنا أحب العدل.

السؤال: ماذا تفعل حين يقضي العدل عليك؟

والآية لا تقف عند النفس، بل تمتد مباشرة إلى الموضع الذي تختلط فيه الحقوق بأثقل العلاقات:

﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

لا تطلب منك أن تنزع المحبة من قلبك، ولا أن تتحول إلى إنسان قاسٍ يظن أن الإنصاف لا يثبت إلا إذا شدد على أهله. الوالدان لهما حقهما، والقريب له حقه، والرحمة والبر والوفاء كلها معانٍ جاء بها الشرع. لكن لهذه المعاني حدًّا لا تملك أن تتجاوزه باسمها: لا تجعل البر شهادةً بباطل، ولا تجعل الوفاء زيادةً في حق، ولا تجعل المحبة سببًا لأن يكون للخطأ اسم إذا صدر من قريب واسم آخر إذا صدر من بعيد.

البيت أول مواضع الامتحان

ولهذا يأتي الامتحان في البيت قبل أن يأتي في ساحات كبيرة.

أعطى بشير بن سعد رضي الله عنه ابنه النعمان عطية، وأراد أن يشهد رسول الله ﷺ عليها. فسأل النبي ﷺ عن سائر أولاده، فلما علم أنه لم يعطهم مثل ذلك قال له: «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**». متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «**فلا أشهد على جور**».

تأمل أين وقع الجور هنا. داخل أبوة، وعطية، ومحبة لولد. لا أحد يتهم الأب بأنه صار عدوًّا لبقية أبنائه، ولا أن أصل إرادته أن يظلمهم. وربما كان عنده في نفسه ما يراه سببًا لتفضيل هذا الولد. لكن النبي ﷺ أعاد الأمر إلى كلمة لا تتغير لأنك أب:

«اعدلوا».

فالمحبة لا تصبح إذنًا بإعادة وزن الحقوق. وهذه قاعدة شديدة القرب من حياة الإنسان؛ لأن أكثر صور المحاباة لا تدخل علينا وهي تقول: أنا ظلم. تدخل وهي تقول: هذا ابني، هذا أخي، هذا صاحبي، هذا الذي وقف معي، هذا الذي أعرف قلبه، وهذا الآخر لا أعرفه.

وحينئذ قد يشعر الإنسان أن العدل البارد مع القريب خيانة للمودة. لكن القسط لا يطلب برودًا. يطلب أن تحب من غير أن تغيّر الحق من أجله.

وقد تكون من أعظم نصرة قريبك أن تمنعه من أن يأخذ ما ليس له.

قال النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**». فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظلم، فإن ذلك نصره**». رواه البخاري.

هذه إعادة كاملة لمعنى الولاء. النفس تفهم النصرة أولًا بوصفها الوقوف مع صاحبك. لكن النبي ﷺ ينقلها إلى شيء أعلى: الوقوف مع حقه، وضده إذا كان هو الذي يهدمه بظلمه.

أن تمنعه ليس تخليًا عنه. قد يكون هو النصرة التي يحتاجها ولا يريدها.

وقد يضيق بك اليوم لأنك لم تدافع عنه، ثم يكون خير ما صنعت له أنك لم تساعده على أن يحمل حق إنسان إلى يوم القيامة. الولاء الذي يجعل صاحبه أجرأ على الظلم ليس وفاءً كاملًا؛ لقد حفظ صورته في اللحظة، وخذله في المآل.

وهذه الكلفة هي التي تجعل ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135] ضرورية. لو كانت الشهادة للقريب لمالت معه، ولو كانت للناس لتبدلت مع ضغطهم، ولو كانت لصورتك عن نفسك لصعب أن تعترف بخطأ قديم. لكنها لله. والحق الذي تقوله على نفسك أو على من تحب لا يعني أنك أحببتهم أقل؛ يعني فقط أن محبتك لم ترتفع فوق طاعة الله.

حين تضغط الشفقة والمكانة

ثم تأخذ الآية الإنسان إلى نوع آخر من الضغط لا يحتاج قرابةً أصلًا:

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ [النساء: 135].

قد يبدو الغني والفقير طرفين متعاكسين لا يجمعهما شيء. لكن الآية تجمعهما لأن كليهما يستطيع أن يحرف الحكم من جهة مختلفة.

قد يميل الإنسان إلى الغني لقوته أو مكانته أو نفعه أو الخوف من أثره. وقد يميل إلى الفقير رحمةً به، أو لأنه يرى أن ضعفه في نفسه كاف ليجعل الحق معه. وفي الحالتين يمكن أن يكون الدافع مفهومًا إنسانيًا؛ الخوف مفهوم، والشفقة جميلة في أصلها. لكن الحق لا يتبدل بهما.

ويقطع القرآن هذا التردد بكلمات قليلة:

﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135].

قبل أن نمكث عند هذه الكلمة، انظر كيف جسدت السنة خطر المكانة حين تدخل بين الحكم وصاحبه.

سرقت امرأة من بني مخزوم، فأهم قريش شأنها. كانت من قبيلة ذات مكانة، وأرادوا من يشفع لها عند رسول الله ﷺ، فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ؟

كل شيء في المشهد قابل لأن يضغط على الحكم: شرف الأسرة، وحرج الجماعة، وشفيع يحبه النبي ﷺ. فكلّمه أسامة.

فقال رسول الله ﷺ: «**أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟**» ثم قام فخطب، وقال:

«إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

ثم جاءت الكلمة التي تقطع آخر احتمال لأن يكون القرب استثناءً في الميزان:

«وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

متفق عليه.

لا يحمل هذا المشهد كل تفاصيل العدل في كل باب؛ الحديث في حدٍّ ثبت بشروطه، وله أحكامه. لكن موضعه هنا جلي: المكانة لا تغيّر الحكم، والقرابة لا تصنع لأحد وزنًا آخر. رسول الله ﷺ لم يذكر امرأة بعيدة ليؤكد المبدأ، بل ذكر أحب الأسماء قربًا منه: فاطمة بنت محمد.

وكأن معنى ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135] ينزل من الآية إلى الحياة أمامك.

ليس القسط أن تبحث عن شخص لا تحبه لتبرهن أنك صارم. القسط أن يبقى المعيار نفسه حين يصل إلى بيتك.

وهذا يكشف شيئًا آخر في النفس: نحن لا نطلب دائمًا إسقاط الحق كاملًا عن القريب. يكفينا أحيانًا أن نطلب له استثناءً صغيرًا؛ تأويلًا أوسع، أو مهلة لا نعطيها غيره، أو اسمًا ألطف لفعله، أو أن تكون ظروفه «معقدة» بينما ظروف غيره «أعذارًا». وقد يكون بعض هذه الفروق حقًا فعلًا؛ الناس وأحوالهم ليست سواء. الخطر ليس في كل فرق، بل في الفرق الذي لم يصنعه الواقع وإنما صنعه الاسم.

لهذا تحتاج النفس أحيانًا إلى سؤال واحد: لو كان هذا الفعل من شخص لا أعرفه، هل كنت سأراه بالعين نفسها؟

ولا يعني ذلك أن كل الأحكام يجب أن تتساوى مع اختلاف القرائن؛ إنما يمنع أن تكون القرابة نفسها قرينةً مصطنعة تغير ما لا يتغير.

ثم عد إلى قوله تعالى:

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135].

هذه هي اللحظة التي يخرج فيها الحكم من يد شفقتك وخوفك معًا.

قد تقول في نفسك: هذا فقير، إن حكمت عليه بالحق ضاع. والقرآن لا يقول لك: كن قاسيًا عليه.

يقول: ﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135]. الله أعلم بالغني والفقير، وأرحم بهما منك، وأولى بتدبير شأنهما. لا تحتاج أن تفسد ميزان الحق كي تكون رحيمًا؛ الرحمة التي يرضاها الله لا تحتاج إلى ظلم إنسان آخر.

وقد تقول: هذا غني قوي، إن شهدت عليه أضر بي، أو ضاعت مصلحة، أو قامت خصومة لا أطيقها.

والجواب نفسه: ﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135]. ليست قوة الغني دليلًا له، كما أن ضعف الفقير ليس دليلًا له. كلاهما عبد لله، والحق ليس ملكًا لك تعدله بحسب ما تتوقع من مصيرهما.

وفي هذه الكلمات راحة خفية للقائم بالقسط. فأنت لم تُوَكَّلْ بمقاليد العباد حتى تحتاج إلى أن تغير حكم الله لتنقذ أحدا. افعل ما أمرك الله به، واترك لله ما هو أولى به منك.

﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135].

لو استقرت هذه الجملة في القلب لخفّ كثير من التلاعب الذي يسمّيه الناس رحمة أو حكمة أو مراعاة. لا لأن هذه المعاني باطلة، بل لأنك عرفت حدك: ليس لك أن تشتري مصلحة إنسان بحق إنسان آخر، ولا أن تحمي قريبًا من نتيجة حق لأنك أرحم به من الحكم الذي أمر الله به.

العدل ليس قسوةً على القريب

ويبقى للقسط توازن لا يصح أن يضيع. ليس المطلوب أن تصير شديدًا على نفسك وأهلك حتى تثأكد أنك غير متحيز. الميل قد يقع في الجهة الأخرى أيضًا، وقد يتحول خوف الإنسان من المحاباة إلى ظلم للقريب ليبدو منصفًا. الحق لا يطلب منك أن تزيد عليه كما لا يسمح لك أن تنقص منه.

ولهذا لا يُعرَّف العدل بالمساواة المطلقة في كل شيء. يقول الله تعالى في باب الزوجات: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129]. سياق الآية مخصوص بعلاقة الزوج بزوجاته، ولا يصح أن نجعلها قاعدة تبيح الميل في الحكم أو الحقوق. لكنها تحرس معنى مهمًا: ليس كل ميل قلبي يملكه الإنسان، ولا كل اختلاف في الشعور ظلمًا. الذي يُنهى عنه أن يتحول الميل إلى جور عملي يترك صاحبة الحق كالمعلقة.

فوجود عاطفة أقوى تجاه شخص لا يجعلك آثمًا بمجرده، كما أن عدم قدرتك على تسوية كل إحساس لا يعفيك من عدل ما تملكه من القول والفعل والحق. القرآن لا يكلفك أن تسوي ما لا تملك، لكنه لا يسمح لك أن تجعل ما لا تملك ذريعةً للجور فيما تملك.

وهذا يريح القلب من معركة زائفة. لا تحتاج أن تقنع نفسك أنك تحب كل الناس سواء قبل أن تنصفهم. ولا أن تدعي أنك لا تتأثر بمكانة أو ضعف أو قرابة. قد يتحرك القلب، ثم يبقى لك عمل: ماذا ستفعل بما تستطيع؟

وبذلك يصبح القيام بالقسط واقعيًا لا مثاليًا. أنت لا تنتظر قلبًا بلا روابط، بل تتعلم أن لا تجعل الروابط مصدر الحكم.

حين يكون الخطأ خطأك

وقد يكون أثقل موضع لذلك حين يكون الخطأ خطأك أنت. لأن القريب يمكن أن تبتعد عنه لحظة، والغني والفقير خارجك، أما نفسك فمعك في كل تفسير. تعرف قصتك من الداخل، وتعرف نيتك التي لم يرها الناس، وتعرف الضغوط التي مررت بها، ولذلك تستطيع أن تصنع لنفسك من الأعذار ما لا يستطيع خصمك أن يصنعه لك.

وهذا لا يعني أن تهدر نيتك أو ظروفك، لها وزنها حين يكون لها وزن حقيقي. لكن معرفة الداخل تمنحك مادةً كبيرة للتبرير. ولذلك كان أول ما قالت الآية بعد الأمر: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: 135].

ليس المطلوب أن تكره نفسك، بل أن لا تجعلها الخصم والقاضي معًا.

قد يكون من أصدق العدل أن تقول: قصدت خيرًا، وأخطأت. أو: لم أرد ظلمه، ووقع مني ما ظلمه. أو: كان علي ضغط، لكنه لا يحول حقه إلى باطل. حين تستطيع حمل هذين المعنيين معًا لا تحتاج أن تشوه نيتك حتى تعترف بالفعل، ولا أن تبرئ الفعل لأن نيتك كانت حسنة.

وهذه قدرة تحتاجها العلاقات كلها. قد يعتذر إنسان فيقول: لم أقصد. فيظن أن عدم القصد أغلق الباب. وقد يكون صادقًا في نيته، لكن أثر الفعل بقي. القسط لا يساوي بين المتعمد والمخطئ، لكنه لا يجعل حسن القصد ممحاةً لكل حق ترتب.

ومن هنا لا يعود الاعتراف بالخطأ انهيارًا للذات. القوّام لا يحتاج أن يكون بريئًا من كل زلة؛ يحتاج أن يبقى مستعدًا لأن يقف مع الحق حتى إذا مر من خلاله هو.

وهذه من أجمل الحريات التي يمنحها القيام لله: أن لا تضطر إلى حماية نفسك من الحقيقة.

لست محتاجًا أن تنتصر في كل واقعة حتى تبقى محترمًا في عينك. يمكن أن يكون الحق عليك اليوم، وتبقى قيمتك في أنك عرفته وقمت به.

ومتى استقرت هذه الحرية تغير معنى القوة في الاعتذار والرجوع. لا تعود كلمة «أخطأت» خصمًا لمكانتك؛ قد تكون هي التي تعيدها إلى موضع صحيح. ولا يعود رد حق أخذته خسارة؛ الخسارة أن يبقى في يدك وهو ليس لك.

وهكذا يتحول ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: 135] من امتحان ثقيل فقط إلى باب تزكية. كل مرة تعترف فيها بحق عليك من غير أن تضطر إلى أن تُكشف، وكل مرة تمنع نفسك من منح القريب وزنًا لم

يمنحه الله، وكل مرة تترك شفقةً تحبها عند الحد الذي لا يظلم غيره، يتعلم قلبك أن له ربًّا أولى به وبالناس منه.

﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135].

هذه ليست فقط حجة توقف الانحياز. فيها راحة العبودية أيضًا: الله أولى. لا تحتاج أن تحمل بحكمك ما لم يكلفك الله حمله. لا تحتاج أن تنقذ صورة قريبك على حساب الحق، ولا أن تنقذ فقيرًا بظلم غيره، ولا أن ترضي قويًا بإخفاء ما عليه. قم بما عليك، واترك ما وراء ذلك لمن هو أولى بالجميع.

ولعل هذا هو أصفى ما يمكن أن يخرج به الإنسان من امتحان القرب: أن يحب ولا يعبد محبته، ويرحم ولا يعبد رحمته، ويخاف ولا يعبد خوفه، ويعترف بخطئه من غير أن يعبد صورته.

ليس معنى ذلك أن تنتهي المعركة هنا. القرب يجذب الميزان نحو من تحب، وهذه أول جهة من جهات الضغط. لكن للحياة جهة أخرى أشد خشونة: أن يقف أمامك إنسان لا تحبه أصلًا، وربما آذاك، وربما كان في قلبك منه شيء له أسبابه الحقيقية. هناك لن تكون المشكلة أنك تريد أن تعذره أكثر، بل أنك قد تجد في نفسك استعدادًا لأن تنقصه.

فهل يبقى الحق حقًا حين يكون لصاحب وجه لا تطيقه؟

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ [المائدة: 8]

قد يكون صاحب الوجه الذي لا تطيقه هو الذي بدأ.

لم تتوهم أذاه، ولم تصنع خصومتك معه من فراغ. قد يكون قد ظلمك فعلًا، أو قال فيك ما يؤلم، أو وقف منك موقفًا لم تنسه. وحين يعود اسمه في قضية جديدة لا يأتي وحده؛ تأتي معه القصة القديمة، والكلمة القديمة، وما بقي في النفس منها. هنا يصير القسط أشق من أن يكون قاعدةً تعرفها؛ لأن الذي يقف أمام الميزان ليس رجلًا غريبًا، بل رجلًا له عندك حساب.

حين يكون الأذى حقيقيًّا

والقرآن لا يبدأ هذا الامتحان بطلب أن تنسى الحساب، ولا بأن تقنع نفسك أن الأذى لم يقع. يقول الله تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 2].

﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ [المائدة: 2].

فالجرح حاضر في الآية قبل النهي. قوم صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، ومع ذلك لا يملك ما فعلوه أن يعيد كتابة حدود الله. و﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [المائدة: 2]: لا يحملنكم بغضهم على أن تتجاوزوا. ليست القضية أن يكون الألم كاذبًا؛ القضية أن لا يصير الألم مشرِّعًا.

وهذا موضع دقيق؛ لأن المظلوم يرى من حقه بوضوح ما لا يراه من حد حقه. يعرف ماذا فُعل به، ويستطيع أن يستحضر تفاصيله، وربما كان الناس كلهم معه في أصل مظلمته. ثم تأتي لحظة صغيرة ينتقل فيها من أخذ حقه إلى أخذ شيء فوقه، أو من دفع الظلم إلى معاملة الظالم بما لا يرضاه الله. وقد لا يشعر أنه انتقل؛ فالماضي ما يزال مفتوحًا في نفسه، وكل زيادة تبدو جزءًا من الحساب القديم.

لكن ظلم غيرك لا يتحول إلى رخصة لك.

ولا يطلب القرآن منك في المقابل أن تكون مستسلمًا لكل من اعتدى عليك. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41]. للمظلوم أن يطلب حقه، وأن يدفع عن نفسه بالحق، وأن لا يسمي العدوان إحسانًا ولا الضعف فضيلة. إنما يبقى السؤال: أين ينتهي الحق؟ فالخصومة لا تمنح الإنسان حقًّا مفتوحًا، والجرح لا يمد الحد الذي حدّه الله.

هذه من أشق صور العبودية، لأن النفس في لحظة الألم تريد أن تستمد الحكم من ألمها. وكلما كان الذي أمامك أشد إساءة بدا لك أن التشدد معه أصدق، وأن المسامحة في الدقة نوع من السذاجة، وأنه لا يليق بك أن تكون أحرص على حقه مما كان هو حريصًا على حقك.

لكن المؤمن لا يزن فعله بفعله.

هو يزن فعله بأمر الله.

ولهذا لا يكفي أن تقول: هو الذي بدأ. البداية تفسر الخصومة، لكنها لا تحكم كل ما يأتي بعدها. وقد يصدق أنك صاحب المظلمة الأولى، ثم تصبح صاحب التجاوز الثاني. والقرآن لا يجعل دور المظلوم حصانة أخلاقية دائمة، لأن العبد يبقى عبدًا لله وهو موجوع، كما يبقى عبدًا له وهو راضٍ.

قد يظهر هذا في صورة فاضحة، وقد يكون أدق بكثير. ربما يكون لك عند رجل حق فتأخذه، ثم تجد في قدرتك أن تضيّق عليه في شيء لا يدخل في حقك. وربما تقع واقعة جديدة يكون فيها له وجه صحيح، لكن نفسك لا تستسيغ أن تكون أنت الذي يقر له به. لا تريد أن تكذب، ولا تريد أن تظلمه ظلمًا ظاهرًا؛ تريد فقط أن لا تضطر إلى قول الجملة الثقيلة: هو محق هنا.

وفي السورة نفسها يأتي الأمر أصرح وأثقل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8].

في الآية الأولى: لا يحملنكم الشنآن على الاعتداء.

وفي الثانية: لا يحملنكم على ترك العدل.

وبين الأمرين مسافة تكشف ما في النفس. فقد يمسك الإنسان يده عن العدوان الصريح، ومع ذلك لا يطيق أن يعطي خصمه وزن الحق كاملًا. لا يأخذ منه مالًا، ولا يفتري عليه، لكنه يكره أن يعترف له بصواب، أو أن يفصل بين خطئه في باب وحقه في باب آخر. يريد للخصومة حكمًا شاملًا يريحه: ما دام هذا الرجل سيئًا معي، فليكن كل ما يأتي منه موضع ريبة، وكل ما يكون له أقل استحقاقًا للعناية.

أما القسط فيفكك هذه الراحة. يجعلك قادرًا على أن تقول عن الشخص نفسه: ظلمني هنا، وهو محق هنا. أخطأ في هذا، وله حق في ذاك. لا أثق به في أمر، ولا يبيح لي ذلك أن أبدل حكم أمر آخر. قد يبقى الخلاف كله قائمًا، ويبقى الألم، وتبقى المسافة بينكما؛ لكن الحق لا يُلغى لأن صاحبه مكروه.

ولهذا بدأ الخطاب قبل ذكر الشنآن بقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: 8].

هذه الكلمة تغير جهة النظر كلها. أنت لا تعدل مع خصمك لأنه حسن المعاملة، ولا لأنك تنتظر منه أن ينصفك غدًا، ولا لأن العدل طريقة ذكية لامتصاص النزاع. قد لا يشكرك، وقد يسيء فهم إنصافك، وقد يبقى على ما في قلبه منك. لكنك لم تكن قائمًا له من الأصل.

أنت قائم لله.

فإذا صار الله هو الجهة التي تقوم لها لم يعد السؤال: ماذا يستحق هذا الرجل مني بعد كل ما فعل؟ بل: ماذا أمر الله به في هذه الواقعة؟ قد يكون لك عليه حق كامل فتأخذه، وقد يكون له عليك حق في جزئية فتؤديه. لا يسقط حقك لأنك عدلت معه، ولا يسقط حقه لأنه ظلمك.

وهذه قوة لا رخاوة. فالإنسان الذي لا يستطيع أن يضبط نفسه إلا مع من يحبه لم يختبر ميزانه بعد. أما أن يقف في موضع يستطيع فيه أن يزيد على خصمه، ثم لا يأخذ إلا حقه؛ أو يستطيع أن يحذف له حقًّا صغيرًا لا يراه الناس، ثم يتركه له لله؛ فهنا يدخل القسط إلى موضع لا تبلغه الشعارات.

وقد تكون أشد صورة من ذلك أن لا تسمح لعداوة الرجل أن تحدد أخلاقك. بعض الخصوم يأخذ من صاحبه أكثر مما أخذه يوم ظلمه؛ يظل بعد سنوات قادرًا على أن يثيره، وأن يستخرج منه كلامًا لم يكن ليقوله، أو فعلًا لم يكن ليرضاه من نفسه. يظن الإنسان أنه يعاقب خصمه، فإذا خصمه قد صار حاضرًا في ميزانه، يحرّكه متى شاء.

أما قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: 8] فيردك إلى حريتك الحقيقية: لا تعطه هذه السلطة. ما فعله بك لا يملك أن يخرجك من طاعة الله.

وهذا لا يعني أن الذاكرة يجب أن تمحى. قد يكون من الحكمة أن تحذر ممن جرّبته، وأن لا تعيد إليه ثقة أضاعها، وأن تحفظ حقك من طريق تعرف أنه لا يؤتمن. القسط لا يأمرك أن تكون غافلًا. إنما يمنعك من شيء أدق: أن تجعل التاريخ القديم جوابًا جاهزًا لكل واقعة جديدة. الحذر شيء، وتغيير الحق شيء آخر.

فالشنآن يستعجل الحكم؛ لأنه يعرف صاحبه قبل أن تبدأ الواقعة. والقسط يجبرك أن ترى هذه الواقعة أيضًا.

الحق ليس جائزةً لمن تحب

وقد يتسع الشنآن من الشخص إلى كل ما يتصل به. يكفي أن يكون القول صادرًا ممن تخاصم حتى تثقل عليك احتمالية صوابه، أو أن يكون حقًّا يعود إليه حتى تشعر في داخلك كأن إقراره مكافأة لا

يستحقها. وهنا يحتاج القلب إلى تذكير بسيط: الحق ليس جائزة أخلاقية نعطيها لمن نحب سيرتهم. قد يكون صاحب الحق في جزئية إنسانًا أساء في جزئيات كثيرة، ويبقى هذا الحق له.

بل إن القرآن، حين يتكلم عن قوم خالفوا المؤمنين في الدين لكنهم لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم، لا يقف عند مجرد منع الجور، بل يقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]. فالاختلاف باقٍ على حقيقته، ومع ذلك يبقى البر والقسط في موضعهما. ليس كل مخالفٍ عدوًّا، ولا كل اختلافٍ إذنًا للجفاء، وإذا وقعت خصومة حقيقية بقي لكل واقعة حدها وحقها.

وفي قلب الخصومة لا يعلّق القرآن العدل على استحقاق الخصم ولا على مودتك له. قال:

﴿اعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8].

فعلٌ موجب واضح يأتي في قلب الشنآن نفسه.

ويرد القرآن هذا الأمر مباشرةً إلى الله:

﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8].

في لحظة الخصومة قد تظن أن التقوى تظهر في كثرة عبادات بعيدة عن هذا النزاع، بينما القرآن يضعها هنا: عند الحد الذي كان يمكنك أن تتجاوزه فلم تتجاوزه، وعند الحق الذي كان يسهل عليك أن تنقصه فلم تفعل، وعند الكلمة التي كان الغضب سيدفعك إليها فذكرتَ أن الله يسمع.

العدل مع من تحب جميل، أما عدلك مع من يؤلمك فيكشف طبقة أخرى من عبوديتك؛ لأن الدافع الخارجي الذي يعينك قد غاب. لا امتنان تنتظره، ولا مودة تسندك. بقيت أنت وأمر الله.

الغضب لا يملك مقدار الحق

وفي السنة مشهد يكاد يجمع هذا الامتحان كله في دقائق.

كان الزبير بن العوام رضي الله عنه ورجل من الأنصار قد اختصما عند رسول الله ﷺ في شِراج من الحرة، مجرى ماء يسقيان به النخل. فطلب الأنصاريُّ من الزبير أن يرسل الماء، فأبى، فاحتكما إلى النبي ﷺ.

قال رسول الله ﷺ:

«اسقِ يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك».

كان في هذا رأي سعة؛ يأخذ الزبير حاجته ثم يرسل الماء. لكن الخصومة كانت قد تجاوزت الماء إلى ما في الصدر. فقال الأنصاري:

«أن كان ابن عمتك؟»

أي: أهذا الحكم لأنه قريبك؟

فتلوّن وجه رسول الله ﷺ.

قف عند هذه اللحظة. لم تكن الكلمة هينة. اتهام للنبي ﷺ في عدله، وفي قضية حكم فيها بين رجلين، والزبير فعلًا ابن عمته. اجتمع ما يمكن أن يضغط على الإنسان دفعة واحدة: قرابة، وخصومة، واتهام جارح، وغضب ظاهر على الوجه.

ثم قال النبي ﷺ:

«اسقِ يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر».

فاستوفى للزبير حقه. والحديث متفق عليه.

لم يُعط الزبير بسبب القرابة أكثر مما له. ولم يُنقص الأنصاري من حق ثابت لأنه آذى رسول الله ﷺ بكلمته. الذي تغير هو الانتقال من رأي فيه سعة للطرفين إلى صريح الحق الذي للزبير. بقي الحكم داخل حدّه.

تلوّن الوجه، ولم يتلوّن الميزان.

هذه الجملة النبوية العملية أبلغ من كثير من الحديث عن الحياد؛ لأن النبي ﷺ لم يكن منفصلًا عن الموقف. سمع الاتهام، وتأثر به، وظهر أثره على وجهه. ومع ذلك لم يصبح الألم دليلًا، ولم يدخل الغضب في مقدار الماء.

فالقسط لا يشترط أن تصبح بلا قلب قبل أن تعدل. قد يغضب الإنسان من كلمة، وقد ينفر من صاحبها، وقد يبقى في نفسه أثر ظلم سابق. المطلوب ليس أن يكذب على مشاعره، وإنما أن لا يسلمها الحكم.

ومن أجل ذلك فقول الله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [المائدة: 8] أدق من مجرد النهي عن الكراهية. قد يوجد الشنآن، لكن لا تدعه يحملُك. قد يوجد الغضب، لكن لا تجعله يختار مقدار الحق. قد توجد الذاكرة، لكن لا تعطها أن تضيف إلى الواقعة ما ليس فيها.

هذا ما يجعل مشهد الزبير قريبًا من كل إنسان، وإن لم يكن قاضيًا ولا صاحب سلطة. قد يكون قرارك في بيت، أو عمل، أو علاقة، أو حق مشترك بينك وبين من خاصمك. ربما لا يراك أحد في اللحظة التي تستطيع فيها أن تجعل الحساب القديم يدخل في الجديد. هنا لا تحتاج النفس إلى جريمة كبيرة كي تميل؛ يكفيها تعديل صغير لا يلتفت إليه الناس.

لكن الله يلتفت.

ولهذا تختم الآية:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

خبير بما تعملون؛ لا بالنتيجة الظاهرة وحدها. يعلم لماذا شددت هنا، ولماذا رققت هناك، وما الذي كان في قلبك حين قدرت أن تأخذ أكثر فتوقفت، أو قدرت أن تمنع حقًّا فأديته. قد يراك الناس عادلًا ولا يعلمون ما قاومت في نفسك، وقد لا يشكرك خصمك أصلًا؛ لكن العمل لم يكن له.

كان لله.

والقسط أوسع من أن يختزل في «لا تظلم عدوك». وفي سياق الجزاء عند الله يقول القرآن: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 35-36]. الآيتان لا تتحدثان عن خصومتك الخاصة، لكنهما تمنعان وهمًا قد يلبس على معنى القسط: العدل لا يقتضي محو الفروق الحقيقية بين الأحوال. فالقوّام يستطيع أن يكون قويًّا في طلب حقه، واضحًا في رفض الظلم، ذا ذاكرة تتعلم من التجربة؛ لا يساوي بين الظالم والمظلوم، ولا بين الأمين والخائن، لكنه لا يجعل الفرق الحقيقي بينهما بابًا لفروق أخرى يضيفها غضبه من عند نفسه.

إذا ظلمك إنسان، فليس من القسط أن تسمي ظلمه شيئًا آخر. وإذا ثبت لك عليه حق، فلا يلزمك أن تتنازل عنه لتبرهن على نقاء قلبك. وإذا احتجت إلى أن تحذر منه، فالحذر في موضعه ليس جورًا. لكن حين تقف عند الحد الذي ينتهي فيه حقك، ثم تجد في نفسك قوة تدفعك خطوة أخرى، فهنا يبدأ امتحان الآية.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8].

ليس «أقرب إلى أن يظن الناس بكم خيرًا»، ولا «أقرب إلى أن يهدأ خصمكم». أقرب للتقوى؛ لأن الذي يمنعك عند الحد في النهاية ليس استحقاق الخصم، بل خشيتك من الله.

ولعل من أثقل صور هذا القيام أن تعطي خصمك حقه من غير أن تشعر أنك هُزمت. إنصافه في جزئية لا يمحو مظلمتك، كما أن مظلمتك لا تمحو حقه. تستطيع أن تبقي الحكمين معًا: ظلمني، وله هذا الحق. أساء، وأصاب هنا. وحين يقدر القلب على ذلك لا يعود محتاجًا إلى أن يكون خصمه مخطئًا دائمًا حتى يطمئن هو إلى أنه محق؛ يكفيه أن يبقى داخل حدود الله.

اسم واحد يكفي للامتحان

فكر في اسم واحد يكفي لهذا الامتحان.

إنسان إذا ذُكر تحرك شيء في صدرك، وله عندك قصة لم تُغلق تمامًا. ثم تخيل أن غدًا جاءك حق له لا علاقة له بما سبق. لا يطلب القرآن منك أن تحبه، ولا أن تنسى ما فعل، ولا أن تسلمه نفسك مرة أخرى. يطلب شيئًا واحدًا أشق وأصفى:

أن يبقى الحق حقًّا حتى وهو له.

وعندئذ تكون قد خرجت من الخصومة بشيء أعظم من الغلبة على خصم: لم تدع الخصومة تغيّر الميزان فيك.

ومع ذلك يبقى سؤال أعمق. الشنآن ضغط ظاهر تستطيع أحيانًا أن تشعر به وتسميه؛ لكن ما الذي يجعل الإنسان يرى ميله نفسه كأنه حكم، ويظن أنه يتبع الحق وهو في الحقيقة يتبع ما تميل إليه نفسه؟

هنا ينتقل النظر من اسم الخصومة إلى المحرك الأعمق الذي قد يعمل خلفها: الهوى.

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا [النساء: 135]

الهوى لا يأتيك غالبًا باسمه.

لو قال لك في أول القضية: غيّر الحق لأن النتيجة لا تعجبك، لكان كشفه أيسر. لكنه قلّما يدخل بهذه الصراحة؛ يدخل أهدأ من ذلك، فيسبق الحكم بخطوة، ويؤثر في الطريقة التي تنظر بها إلى ما أمامك، وفي الموضع الذي يطول عنده فكرك، وفي السؤال الذي تراه مهمًّا، وفي العذر الذي يستحق أن يُسمع حتى آخره، وفي العيب الذي يكفي عندك لإسقاط قول كامل.

ولهذا كان الانتقال من الشنآن إلى الهوى انتقالًا إلى الداخل. في الخصومة الماضية كان للقوة التي تضغط على الميزان وجه تعرفه: رجل آذاك، أو قوم بينك وبينهم جرح. أما هنا فإن القرآن يسمي المحرك الذي قد يعمل حتى حين لا يكون أمامك خصم ظاهر:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135].

و﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135] على تقدير: كراهة أن تعدلوا، أي: لا يحملنكم الهوى على ترك العدل.

بعد النفس والوالدين والأقربين، وبعد الغني والفقير، لم تعد الآية تعدد الوجوه التي قد يميل الحكم لأجلها. وصلت إلى ما يمكن أن يجمعها من الداخل: الهوى.

والتعبير دقيق: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا﴾ [النساء: 135]. فالإنسان قد يميل ولا يتبع ميله. قد يحب نتيجة، ثم يتركها حين يظهر له أن الحق خلافها. وقد يكره قولًا، ثم يقبله لأنه تبين له صدقه. وقد يتمنى أن يكون صاحبه بريئًا، أو أن يكون موقفه الذي دافع عنه طويلًا صحيحًا، ثم يكتشف أن التمني ليس حجة.

المشكلة ليست أن يكون للقلب رغبات؛ هذه طبيعة بشرية لا يكلّف الإنسان بنزعها من أصلها. الخطر أن تنتقل الرغبة من موضعها إلى مقام الحَكَم، فتصير هي التي تقرر أي معنى يُقبل، وأي معنى يُدفع، ومتى يكفي ما ظهر من الحق، ومتى لا يكفي.

وقد يكون الإنسان في هذه الحال صادقا في إحساسه بأنه منصف. وهذه هي الصعوبة؛ ذلك أنه لو كان الهوى لا يعمل إلا مع الكذب المتعمد لكان كثير من الناس أبعد عنه مما هم عليه. إذ النفس لا تحتاج دائما إلى أن تقول باطلًا تعرف أنه باطل؛ يكفي أحيانا أن تنظر إلى الحقيقة من جهة واحدة حتى تبدو النتيجة التي تريدها هي النتيجة الوحيدة المعقولة.

رجل دافع عن رأي سنين، حتى صار جزءًا من صورته عند الناس، وربما علّمه وكتب فيه وخالف من أجله. ثم جاءه ما يضعف جزءًا من بنائه. لا يدخل إلى عقله معنى جديد وحده؛ يدخل معه ثمن القبول: ماذا يعني أن أرجع؟ ماذا سيقول من جادلتهم؟ وقد لا يقول هذا لنفسه صراحة، لكنك تراه في مقدار ما يطلبه من الدليل المخالف مقارنةً بما كان يقنعه حين كانت النتيجة تسير معه. ليس هذا دليلًا على أن قوله الأول باطل؛ إنما هو موضع امتحان: هل ما تزال قادرًا على رؤية القول بعدما دخلت مصلحتك في بقائه؟

حين يستخدم الهوى العقل

ومن أرهف أبواب الهوى أنه يستطيع أن يستخدم العقل نفسه. العقل نعمة عظيمة، وبه يميز الإنسان ويفهم ويستدل؛ لكن العقل إذا أُمليت عليه النتيجة قبل البحث قد يتحول من طالب للحقيقة إلى محامٍ عنها. لا يلزم أن يختلق الأكاذيب؛ يكفي أن ينتقي ما يخدم، ويطيل الوقوف عند ما يوافق، ويجد لكل اعتراض جوابًا سريعًا، ثم يغادر وهو يظن أنه لم يفعل سوى التفكير.

ولهذا قد تكتشف أثر الهوى لا في الحجة التي ذكرتها، بل في مقدار ما طلبته من كل حجة. معنى صغير يوافقك يكفي أحيانًا لتطمئن، ثم يأتي معنى أقوى يخالفك فتفتح له أبواب الاحتمال واحدًا بعد آخر. لا لأن الاحتمالات كلها باطلة؛ قد يكون بعضها معتبرًا. وإنما لأن النفس لا تطلب من الجهتين الثمن نفسه.

ومن طرائقه أن يغيّر زمن الحكم. ما يخدم مرادك يبدو واضحًا يستحق أن يُحسم، وما يهدده يحتاج ـ في شعورك ـ إلى مزيد من التثبت. وقد يعمل بالعكس فيبقيك داخل الشك المستمر: ما دمت تستطيع أن تقول «المسألة محتملة» فلست مضطرًا إلى الرجوع. التثبت فضيلة، والاحتمال قد يكون معتبرًا؛ لكنهما يصيران موضع سؤال إذا لم تستدعِهما إلا الحقيقة التي تؤلمك.

لهذا كان التجرد أكثر من امتلاك أدوات التفكير؛ هو أن تظل الأدوات نفسها تعمل بالمقياس نفسه حين تتغير مصلحتك من النتيجة. والفرق بين النظر الصادق والنظر الذي يقوده الهوى ليس دائمًا في كثرة الحجج، بل أحيانًا في استعداد القلب لنتيجة لا يريدها.

هل دخلت القضية وأنت مستعد فعلًا لأن يكون الحق خلاف ما تتمناه؟

هذا السؤال أثقل من كثير من الأسئلة العلمية؛ لأنه لا يسأل عن قوة ذهنك بقدر ما يسأل عن عبوديتك. فالعبد لا يطلب من الحق أن يأتي في الجهة التي يحبها؛ يأتي هو إلى الحق ليُحكم عليه.

وفي هذا الموضع يصير علم الله جزءًا من الامتحان نفسه. قد تخفى عن الناس أسباب تشددك هنا وتساهلك هناك، وقد لا يعرفون لماذا بدا لك وجه من الوجوه أوضح لأن عاقبته تريحك. أما الله فيعلم من أين بدأ النظر، وأين انتقلت النفس من طلب الحق إلى حماية ما تريد.

ومتى صار هذا العلم حاضرًا، لم تعد مراقبة الهوى تمرينًا نفسيًا على النزاهة فقط؛ صارت عبادة في الخفاء. أنت لا تراجع نفسك لأنك تريد أن تبدو منصفًا، بل لأن الذي تعبده يعلم من أين جاء حكمك قبل أن يسمعه الناس.

ولهذا لا يكفي أن تقول: «أنا مقتنع». القناعة نفسها تحتاج أحيانًا إلى أن تُسأل: كيف وُلدت؟ وهل كان الطريق إليها مفتوحًا في الاتجاهين، أم أن أحد الاتجاهين كان مغلقًا منذ البداية لأن كلفته على النفس مرتفعة؟

وقد ترى الهوى في طريقة تسمية الأشياء قبل أن تراه في الحكم عليها. حين يكون الفعل من شخص تحبه قد تسمي إصراره ثباتًا، فإذا جاء مثله ممن لا ترتاح إليه رأيته عنادًا. وقد تسمي تنازلك أنت حكمة، وتنازل غيرك ضعفًا. وقد ترى حرصك على موقعك مسؤولية، ثم ترى الحرص نفسه عند غيرك حبًا للدنيا. لا يلزم أن تكون إحدى التسميتين باطلة دائمًا؛ السياقات تختلف. لكن السؤال الذي يكشف الميزان هو: هل الذي غيّر الاسم هو الحقيقة، أم صاحبها؟

الهوى يحب الأسماء؛ لأن تغيير الاسم أسهل من مواجهة الفعل. وقد يحب المبادئ أيضًا. فالرحمة مبدأ كريم، والوفاء كريم، وحفظ الكرامة كريم، والغيرة على الحق كريمة. وقد رأيت كيف يستطيع القرب أو الشنآن أن يضغطا على القسط من خلال معانٍ لها أصل صحيح. هنا تظهر الآلية الأعمق: الهوى لا يحتاج دائمًا إلى فضيلة زائفة؛ قد يأخذ فضيلة حقيقية، ثم يطلب منها أن تعمل خارج حدها حتى تخدم ما يريد.

لذلك لا يصح أن يطمئن الإنسان إلى نفسه لمجرد أن العبارة التي يدافع بها جميلة. قد يقول: أنا أرحم، وقد يكون رحيمًا حقًّا؛ ويبقى السؤال: هل الرحمة هنا أعطت صاحبها ما جعله الله له، أم أخذت له مما ليس له؟ وقد يقول: أنا وفيّ؛ ويبقى السؤال: هل الوفاء أعان صاحبك على الحق، أم أعانك على ألا ترى خطأه؟ وقد يقول: أنا شديد في الحق؛ ويبقى السؤال: هل شدتك واحدة حين يكون الحق عليك وحين يكون لك؟

ليس المقصود تحويل كل نية حسنة إلى موضع اتهام، ولا أن يعيش الإنسان عاجزًا عن الوثوق بكل حكم يصدر عنه. لو صار التجرد وسواسًا لتعطلت الحياة. إنما المقصود أن تعرف أن حسن النية لا يغني عن محاسبة الاتجاه الذي تسير فيه النية. قد تخطئ وأنت متجرد، وقد يصيب غيرك وهو صاحب هوى؛ فالنتائج الظاهرة وحدها لا تخبرنا دائمًا عن الطريق الباطن. والذي يعنينا هنا ليس أن نفسر كل خطأ بالهوى؛

للخطأ أبواب أخرى من الجهل ونقص العلم وسوء الفهم. إنما يعنينا ذلك الموضع الذي يكون فيه مراد النفس طرفًا في القضية، ثم يطلب أن يكون مرجعها أيضًا.

وفي القرآن ميزان يقطع الطريق على هذا الخلط حين يكون هدى الله قد ظهر ثم يُعرض عنه. يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 50].

ليس كل خلاف بين اثنين تنزيلًا لهذه الآية، سياقها في قوم طُلب منهم أن يأتوا بكتاب من عند الله أهدى، فلما لم يستجيبوا ظهر أنهم لا يملكون هدىً يعارض ما جاءهم. لكن في قوله: ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: 50] ميزانًا لا ينبغي أن يفارق القلب: إذا تعارض مراد النفس مع هدى الله، فلا يبقى للهوى حق أن يتنكر في صورة اجتهاد بريء.

﴿بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: 50].

هذه الكلمات تعيد ترتيب السؤال كله. ليس المهم فقط: ماذا أريد؟ ولا حتى: ماذا أرى؟ بل: أين هدى الله من هذا الذي أراه؟ فالهوى يطلب أن تكون النفس هي نقطة البدء ونقطة النهاية، أما العبودية فتقبل أن يأتي الحكم من خارج رغبتها، وأن يكون لله أن يقول لها: هذا الذي تحبينه ليس لك، وهذا الذي تكرهينه هو الحق، وهذا الذي تعودت الدفاع عنه يحتاج منك رجوعًا.

لكن القرآن لا يكتفي بأن يقول لك: لا تتبع الهوى، ثم يترك مكانه فارغًا. في سورة الشورى يجمع البديل في بناء بالغ الصفاء: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: 15].

استقامة كما أُمرت، لا كما ترغب. وإيمان بما أنزل الله، لا بما يختاره المزاج من الوحي. ورفض للأهواء أن تكون هي المرجع. ثم: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: 15].

العدل هنا لا يولد من فراغ. وراءه عبد استقام كما أُمر، وكتاب نزل من الله، وأهواء رُفض أن تكون هي الحاكمة. ليست النجاة من الهوى حيادًا باردًا، ولا فراغًا من الرغبة؛ إنها امتلاء بمرجع أعلى من الرغبة.

حين يأتي الهوى من الخارج

والآية تقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: 15]. فالضغط لا يأتي دائمًا من رغبة فردية خفية. قد تأتيك الأهواء من خارجك ثم تسكن فيك حتى تظنها رأيك أنت: جماعة تحب أن تسمع جوابًا بعينه، وبيئة تعاقب من يخرج عن مألوفها، وأصحاب يصفقون لاتجاه واحد، أو جمهور يجعل بعض النتائج مريحة وبعضها مكلفة.

تدخل مجلسًا تعرف قبل أن تتكلم ما الذي سيُرضي أهله. تعرف أي عبارة ستقابل بالقبول، وأي نتيجة ستجعل الوجوه تتغير. ربما لا يطلب منك أحد صراحة أن تقول شيئًا بعينه، لكنك تشعر بثمن كل احتمال. وهنا قد تنشأ في القلب حجة قبل الحجة: لا أريد أن أخسر هؤلاء.

عندئذ يصبح التجرد أصعب؛ لأن الإنسان لا يشعر أنه يختار لنفسه فقط. يشعر أنه يحمي انتماءً، أو لا يريد أن يخذل من حوله، أو يخشى أن يبدو متقلبًا أمامهم. وقد تكون القضية في أصلها أهدأ من كل هذه الأحمال، لكن الأصوات التي أحاطت بها سبقت إلى القلب.

وتظهر عظمة ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: 15]. الاستقامة ليست كما يحب الناس منك، ولا كما يضمن لك السلامة من لوم جماعتك؛ لها جهة واحدة أعلى: كما أُمرت. ومن كان قائمًا لله لا يحتقر الناس ولا يستغني عن نصحهم، لكنه لا يعطي رضاهم حق التصويت على الحقيقة. يسمع، ويتعلم، ويستفيد؛ ثم يبقى في قلبه موضع لا يدخله إلا أمر الله.

وقد تأتي لحظة لا يبقى فيها حولك ضغط ظاهر من أحد: صفحة تكتبها وحدك، أو قرار ستتخذه، أو تقييم لشخص لا يعرف أنك تنظر في أمره. عندها تستطيع النفس أن تختار لنفسها تفسيرًا مريحًا من غير أن ينازعها أحد؛ ولذلك كان صدق الاستقامة أن يبقى أمر الله حاضرًا حتى حين تسكت أصوات الناس.

وتزداد المسألة خطورة حين يكون للإنسان سلطان ما؛ لأن الهوى إذا اجتمع بالقدرة لم يعد أثره في صاحبه وحده، بل قد يصير قرارًا يطال غيره. والسلطان ليس دائمًا ملكًا وقضاءً؛ للوالد قدر من السلطان، وللمعلم، وللمسؤول، ولمن يقيّم الناس، ولمن يملك قرارًا في مؤسسة، ولمن يعتمد رأيًا سيترتب عليه حق لغيره أو عليه. كلما اتسعت يدك اتسع مقدار ما يمكن لهواك أن يفعله إن لم تعرفه.

فتنةٌ ثم إنابة

ثم يجيء مشهد داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21]. دخل الخصمان على داود عليه السلام دخولًا أفزعه، وقالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: 22]. طلب واضح: الحق، وعدم الشطط، والهداية إلى سواء الصراط.

ثم قال أحد الخصمين: **﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾** [ص: 23]. فقال داود عليه السلام: **﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾** [ص: 24]، ثم يخبرنا القرآن: **﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾** [ص: 24].

ولا يبيّن القرآن لنا هنا تفصيل وجه الفتنة بيانًا يجيز أن ننسج من عندنا قصة نحمّلها للنبي الكريم، وقد نُقلت في هذا الموضع روايات كثيرة لم يثبت فيها عن المعصوم ﷺ ما يجب اتباعه. يكفينا ما أبقاه الله لنا هدايةً يقينية: داود عليه السلام علم أنه في موضع ابتلاء، فاستغفر ربه، وخر راكعًا، وأناب.

قف عند **﴿وَأَنَابَ﴾** [ص: 24].

لم يجعل لحظة الانكشاف بابًا للدفاع عن النفس. رجع إلى ربه. وهذه من أجمل صور النجاة من الهوى: أن يبقى في القلب طريق للرجوع حين ينكشف له أنه في موضع فتنة. فالهوى لا يخيف فقط لأنه قد يوقع الإنسان في خلل، يخيف لأن النفس قد تتعلق بعد ذلك بما صدر منها حتى يصير الدفاع عنه أغلى عليها من الرجوع.

أما داود عليه السلام فكان جواب الفتنة: **﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾** [ص: 24]. ثم يأتي الجواب الإلهي: **﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾** [ص: 25].

ما أرحم هذا الترتيب: فتنة تُدرك، ثم استغفار وإنابة، ثم مغفرة، ثم زلفى وحسن مآب.

القرآن لا يفتح لك باب الهوى ليحبسك في الشك بنفسك، ولا ليعلمك أن كل ميل فيك عطب لا دواء له. يريك أن طريق العبد بعد انكشاف الخلل ليس اليأس ولا المكابرة؛ إنه الرجوع إلى الله. والذي أمرك بالعدل هو الذي يفتح لك إذا أنبت إليه.

وفي هذا شفاء من خوف قد يصاحب اكتشاف الإنسان لخلل في نفسه: أن يظن أن اعترافه يسقط أهليته لكل خير بعده. القرآن لا يصنع هذا اليأس. لكنه لا يجعل الإنابة خاتمة القصة أيضًا. بعد أن أرانا طريق النجاة عند الفتنة، يرفع أبصارنا إلى ما هو أعظم: لماذا كان اتباع الهوى خطرًا أصلًا؟ وإلى أين يمكن أن يقود صاحبه؟ بعد المغفرة جاء الخطاب لداود عليه السلام بالتكليف في أعلى صوره:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

لم يعد السؤال فقط: هل أنصفت في واقعة، أو هل استطعت أن ترجع حين انكشف لك خلل؟ الآية تضع الهوى في موضع أوسع وأخطر: بين العبد وسبيل الله. فالخلل لا ينتهي دائمًا بانتهاء القضية؛ قد يتعلم القلب، مرةً بعد مرة، أن يجعل ما يريد طريقًا يقدمه على الطريق الذي أمر الله به.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ﴾ [ص: 26]: ما في يدك لم ينبت من ذاتك؛ هو إيتاء وأمانة. و﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: 26]: ليست القدرة امتيازًا تستعمله النفس كما تشاء، بل موضع عبودية يجب أن يبقى فيه الحق فوق صاحب القدرة. ثم يأتي الخطر من الداخل: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ [ص: 26].

﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26]. هنا يرتجف الميزان. المسألة أوسع من خطأ منفرد يمكن أن ينتهي بانتهاء القضية؛ إن الذي يتعلم أن يطيع ما يريد حين يصادم الحق قد يتعلم، مرة بعد مرة، طريقًا آخر غير طريق العبودية. القضية الصغيرة تمضي، لكن القلب يبقى متعلمًا: مَن الذي أطيعه حين يتعارض مرادي مع هدى الله؟

وخاتمة الآية لا تترك هذا الانحراف بلا مآل؛ فالعبد محاسب على ما صنع وهو يزن. لكن الخطر الذي سمّته قبل الحساب أسبق في تربية القلب: أن يزيغه هواه عن سبيل الله.

والخطاب لداود عليه السلام في الحكم والولاية، لكن هدايته توقظ كل من جعل الله في يده حقًّا لغيره. الأب فيما وُلّي، والمسؤول، والمعلم، ومن يقيّم الناس، ومن بيده كلمة يترتب عليها حق أو حرمان؛ كل واحد منهم يحمل بقدر ما في يده شيئًا من معنى الأمانة: ما عندك جُعل لك، والحق أُمرت به، والهوى قد يزيغ بك عن سبيل الله.

والمعنى هنا مخيف ومطهّر معًا. لا يطلب منك أن تنتظر حتى تصبح بلا رغبة؛ لن تبلغ هذا. قد تضج الرغبة في قلبك، وقد تتمنى بشدة أن تكون النتيجة في جهة بعينها، لكن لا تسلمها المقود. وجود الميل شيء، واتباعه شيء آخر.

ومن أرحم ما في السياق أن الأمر بالحكم بالحق جاء بعد الإنابة والمغفرة، لا بعد إعلان العصمة من الفتنة. فالإنابة تعيد العبد إلى السبيل الذي حذّرته الآية من أن يضل عنه. ليس المطلوب سجلًا بشريًا بلا زلة، وإنما قلب إذا بان له أنه مال لم يجعل كرامته في حماية الميل، بل جعل نجاته في أن يعود إلى الله وإلى الحق.

وقد يأتيك باب العودة من الموضع الذي تأباه نفسك: على لسان صغير، أو خصم، أو من لا يعجبك أسلوبه. حينئذ لا يكون قبول الحق رفعًا لمقامه فوقك، ولا هزيمةً منك أمامه؛ يكون رفعًا لأمر الله فوقكما جميعًا. ومن ظن أن كرامته معلقة بأن لا يخطئ عاش محاميًا عن صورته، أما من جعل كرامته في العبودية استطاع أن يخالف نفسه القديمة من غير أن ينهدم.

بل قد تكون هذه اللحظة من أصدق لحظات قيامه بالقسط؛ لأن القسط لا يطلب منك أن تكون معصومًا من الميل، وإنما أن لا تجعل ميلك حاكمًا بعد أن ترى الحق.

وفي الجهة الأخرى، لا تجعل خوفك من الهوى سببًا في تعطيل قدرتك على الحكم. ليس المطلوب أن تظل تقول: ربما أنا منحاز، وربما كل ما أراه وهم، حتى لا تثبت على شيء. من البيان أن تعرف موضع الهوى، ومن العدل أن تمضي مع ما ظهر لك من الحق بعد بذل ما تستطيع. الهوى لا يُهزم بالشلل؛ يُهزم بأن يكون فوقه مرجع.

ومن أنفع ما يمكن أن يفعله الإنسان في القضايا التي تمسه أن يسمي ما يريده بصدق قبل أن يستدل له. ماذا أخاف أن أخسر لو ظهر أن الحق خلاف قولي؟ مكانتي؟ صورتي؟ مالًا؟ علاقة؟ انتصارًا قديمًا؟ راحةً من الاعتراف؟

ليس مجرد تسمية هذه الأشياء دليلًا على أنك مخطئ. لكنها تخرج جزءًا من الهوى من الظل إلى النور. يصبح في استطاعتك أن تقول: هذه مصلحتي، وهذا هو ما ظهر لي من الحق؛ فلا أجعل الأول متخفيًا في صورة الثاني.

وقد تكون الخسارة أثقل من ذلك كله: أن تضطر إلى الاعتراف بأن شخصًا لا ترتاح إليه علّمك شيئًا، أو أن الذي خالفته كان في جزئية أقرب إلى الحق، أو أن قرارًا اتخذته وأثّر في آخرين كان يحتاج منك مراجعة. عندها يصبح السؤال أشد وضوحًا: أيهما أثقل عندك، أن تخسر صورةً صنعتها لنفسك، أم أن يبعدك الدفاع عنها خطوة عن سبيل الله؟

وكلما عظُم الله في القلب صغرت حاجة النفس إلى أن تنتصر في كل قضية. من كان الله أكبر عنده من صورته أمكنه أن يتراجع، ومن كان رضا الله أحب إليه من نتيجة يريدها أمكنه أن يخسر النتيجة ولا يخسر نفسه، ومن علم أن الله يرى دقائق ميله لم يكتف بأن يبدو متجردًا للناس.

وعند هذا الحد يكتشف العبد فقرًا أعمق من مجرد حاجته إلى قواعد أدق. يستطيع أن يعرف أبواب الهوى واحدًا واحدًا، ثم تأتيه نفسه من باب لم يسمّه. يستطيع أن يعزم على التجرد، ثم يضعف عند ثمن لم يكن يتوقعه. فإذا عرف نفسه حقًّا لم يزد إعجابه بقدرته على المراجعة؛ ازداد افتقاره إلى من بيده صلاح قلبه.

لا تكلني إلى نفسي

فالذي أمر بالحق لم يكل العبد إلى ذكائه وقوة إرادته وحدهما. أنت مأمور أن تجاهد وأن تراجع وأن تسمي مصلحتك، لكن قلبك نفسه يحتاج إلى تزكية لا تملكها استقلالًا. ومن السنة يأتي دعاء يرد هذا القلب إلى مولاه:

وكان من دعاء رسول الله ﷺ في صحيح مسلم: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها».

تأمل هذه الكلمات في هذا الموضع. النفس التي تخشى هواها لا تُترك لنفسها وحدها. تطلب تقواها من الله، وتطلب زكاتها من الله، وتقول له: أنت وليها ومولاها.

في هذا دفء لا ينبغي أن يضيع من معنى القسط. القائم لا يقف أمام نفسه متكئًا على قوة إرادته فقط. يعمل، ويراجع، ويرجع، ويسمي مصلحته، ويقاوم دفاعه عن صورته؛ ثم يعرف أن قلبه بين يدي الله، وأن سلامته فضل يطلبه من مولاه.

ولهذا لا ينبغي أن يكون اكتشاف الهوى باعثًا على اليأس، بل على افتقار أصدق. كلما رأيت في نفسك قدرة على التبرير قلت: يا رب لا تكلني إلى نفسي. فأنت لا تخشى فقط خطأً في قضية؛ تخشى قلبًا يمكن أن يألف تقديم ما يريد، وتطلب من الله قلبًا يبقى هدى الله أحب إليه من انتصاره لنفسه.

وكلما كان لك من الأمر شيء تذكرت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ﴾ [ص: 26]. ما في يدك إيتاء، وما في يدك أمانة، ومن أعطى يستطيع أن يسألك كيف استعملت.

وتذكرت كذلك تحذيرها: ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

كم يبدو بعض ما نتعصب له صغيرًا حين يوضع إلى جوار هذا الخطر: رأي لم نرد أن نرجع عنه، وصورة لم نرد أن تنكسر، وموقف أردنا أن نخرج منه منتصرين؛ ثم يعتاد القلب أن يحمي هذه الأشياء ولو باعدته خطوة عن هدى الله.

اترك للحق بابًا يدخل منه

ولهذا قد تكون أعظم تربية عملية هنا ليست أن تشك في كل ما تريد، بل أن تترك للحق بابًا يدخل منه ولو أفسد عليك ما تريد. إذا عرفت أن قبول نتيجة معينة سيكلفك، فلا تغلق بابها قبل البحث. وإذا وجدت نفسك شديد السرعة في تبرئة ما تحب، أو شديد البطء في قبول ما يزعجك، فانتبه. وإذا صار كل ما يخالفك ضعيفًا لسبب ما، وكل ما يوافقك قويًا لسبب ما، فاسأل نفسك قبل أن تسأل غيرك. وإذا تبين لك الحق، فلا تجعل طول الطريق الذي قطعته في الجهة الأخرى سببًا لقطع بقية عمرك فيها.

الرجوع نفسه قيام، وقد يكون أشق من الحكم الأول.

والأجمل أن الإنسان حين يتعلم هذا لا يصبح أبرد، بل أصدق. يحب ولا يحتاج أن يحرف، ويغضب ولا يحتاج أن يزوّر، ويريد ويجتهد، ثم يستطيع أن يقول لله في داخله: إن كان الحق خلاف ما أريد، فأعني على اتباعه.

عندها تتغير علاقته بالقسط من قانون خارجي إلى عبودية داخلية. لم يعد السؤال فقط: هل أعطيت الناس حقوقهم؟ صار قبله: من كان يقودني وأنا أزن؟ هدى الله، أم ما أريد؟

وهذا هو الموضع الذي تتلاقى فيه آيتا النساء وص:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135].

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

في الأولى ينحرف العدل، وفي الثانية ينحرف الطريق. ولا يبقى بعد ذلك للهوى شأن صغير حين يمس الحق.

ومع ذلك، بعد كل هذا، ما زال القسط لم يكتمل. فقد يكون الإنسان صادقًا في مقاومة هواه، راغبًا فعلًا في العدل، ثم يصل إليه من القضية نصفها فقط. قد يكون القلب مستقيمًا، والطريق الذي حمل إليه الحقيقة معوجًا.

وهنا يبدأ امتحان آخر.

ليس فقط: ماذا تريد؟

بل: كيف عرفت؟

ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ [البقرة: 282]

قد يصدق الإنسان في إرادته أن يعدل، ويجاهد هواه، ويكون مستعدًّا لأن يكون الحق على نفسه، ثم يخطئ لأن الذي وصل إليه لم يكن الحقيقة كلها. لم يكذب هو، ولم يتعمّد أن يميل، لكنه تلقّى روايةً سبقت غيرها، أو صدّق صورةً قبل أن تكتمل، أو نقل شيئًا لا يملك عليه من العلم ما يساوي أثره في الناس. فالميزان لا يختل فقط حين تميل كفّته بعد أن تعرف الحق؛ قد يختل قبل ذلك، حين تكون المادة التي وضعتها فيه ناقصةً من أصلها.

والقرآن لا يترك هذا الباب للتجربة البشرية وحدها. يأخذك إلى مشهد لم يكن فيه الناس أمام قاضٍ، ولا كانت بين أيديهم ملفات وشهود، وإنما كان هناك خبر: دخل المدينة، ثم دخل البيوت، ثم تحرك بين الألسن، وكان الذي تعلّق به عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبيت رسول الله ﷺ نفسه.

حين يدخل الخبر إلى القلب

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 11].

لم يكن الإفك مجرد كذبة قالها رجل ثم انتهت. صار شيئًا يتحرك في جماعة؛ يسمعه هذا من ذاك، ثم يردده آخر، حتى يصير مجرد شيوعه قوةً إضافية له. وما أسرع ما يوهم الخبر المتكرر النفس أن كثرة من حمله تزيده ثبوتًا، مع أن كل واحد قد يكون لم يملك منه إلا ما سمعه من الذي قبله.

ولهذا لم يبدأ القرآن في تربية المؤمنين من لحظة الكلام فقط، بل رجع إلى اللحظة التي دخل فيها الخبر إلى القلب:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: 12].

﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: 12].

قبل أن تتكلم، هناك ما فعلته لحظة السماع. قد يدخل الخبر إلى قلبك فيجد شخصًا تحسن به الظن، فيقاومه. وقد يجد خصومة قديمة، أو صورةً سابقة، أو استعدادًا لتصديق الأسوأ، فيستقر أسرع مما ينبغي.

وليس حسن الظن هنا سذاجةً تلغي الأدلة، ولا أمرًا بأن تنكر كل خبر سيئ عن كل أحد، إنما هو تربية للقلب ألا يجعل مجرد السماع حكمًا، وألا يسحب عن أخيه أصل البراءة لأن روايةً وصلت إليه في مجلس.

والطبري يلفت إلى معنى بالغ الجمال في قوله: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [النور: 12]؛ أي بإخوانهم المؤمنين، كأن المؤمنين في هذا الباب نفس واحدة. فالخبر حين يتعلق بعرض أخيك لا يدخل إلى أرض مباحة لا حرمة فيها. هناك رابطة إيمان، وهناك حق للغائب قبل أن يحضر ليدافع عن نفسه.

ثم لم يكتف السياق بالظن الحسن، بل رفع معيار الإثبات نفسه: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: 13]. فليست فداحة الادعاء سببًا في تخفيف الدليل؛ بل العكس. وكلما كان ما يترتب على الكلام أشد في عرض إنسان وكرامته وحقه، كان الاستسهال فيه أشد خطرًا.

لكن القرآن يكشف بعد ذلك شيئًا أدق من ضعف الإثبات؛ يكشف كيف يتحرك الخبر نفسه من إنسان إلى إنسان:

بين ما سمعته وما علمته

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: 15].

تعبير يكاد يجعلك ترى الخبر وهو ينتقل. كأن اللسان يسبق موضع العلم: يُسمع الكلام، فيخرج قبل أن يمكث في القلب المدة التي تكفي لسؤال بسيط: ماذا أعلم أنا؟ وهناك فرق شديد الأهمية بين ما سمعته وما علمته، ومسافة بينهما قد تهدم حقوقًا إذا اختفت.

ربما يقول إنسان: أنا لم أجزم، أنا فقط نقلت ما قيل. لكنه حين ينقل يمنح القول عمرًا جديدًا، ومجلسًا جديدًا، وأذنًا جديدة، وربما يدخل خبره إلى قلب شخص لا يعرف من أصل الحكاية شيئًا. والجملة التي خرجت منه بوصفها «مجرد نقل» قد تدخل إلى غيره بوصفها حقيقةً شاعت؛ ولهذا لا يعامل القرآن اللسان كأنه أنبوب محايد تمر منه الأخبار بلا مسؤولية: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: 15]. وفي السنة ما يقطع هذه الحجة من أصلها؛ قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كَذِبًا أن يحدّث بكل ما سمع». رواه مسلم. فلم يقل: كفى به تقصيرًا أو خفّةً، بل قال: كَذِبًا؛ فالكذب ليس مقصورًا على من اختلق، بل يبلُغ من نقلَ بلا تثبّتٍ ما ليس له به علم.

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15].

قد تكون الجملة عندك خفيفة لأنها لم تأخذ من وقتك إلا ثواني. قد تكون رسالة أرسلتها ثم انتقلت إلى غيرها، أو كلمةً قلتها في مجلس وانفض المجلس. قد تقول: كل الناس يتحدثون بهذا، أو: لم أكن أول من قاله، أو: لم أفعل شيئًا، إنما أخبرت فلانًا بما سمعت. لكن المقياس ليس حجم الحركة في يدك.

﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15].

وهذا من أشد ما يربي القائم بالقسط: ألا يزن أفعاله بحجمها في عينه، بل بموقعها عند الله وبما تفعله في حقوق الناس. قد يكون الحق الذي تهدمه كلمة في قلب إنسان أثقل عند الله من كل خفة شعرت بها وأنت تقولها.

ثم يعيدك القرآن إلى أول ثانية من السماع مرة أخرى، ويعلمك أن بعض الكلام لا يحتاج أن يُستكمل تداوله حتى تقرر رأيك فيه:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16].

ليس كل ما يصل إليك حقًّا لك أن تصير محطةً في طريقه. وهذه عبودية للسان قبل أن تكون مهارة في فحص الأخبار. المؤمن لا يسأل فقط: هل أستطيع أن أقول؟ بل: هل لي عند الله أن أتكلم بهذا؟ في الأول مركز السؤال هو قدرتك على النشر، وفي الثاني مركزه عبوديتك لله.

ومن هنا يفهم الإنسان لماذا يأتي في سورة الحجرات نداء آخر يحرس لحظة وصول الخبر قبل أن يتحول إلى فعل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

الآية في خبر الفاسق، فلا نحولها إلى دعوى أن كل خبر في الحياة متهم حتى يثبت العكس. لكن ميزانها ظاهر: قد يتحول نبأ لم يُتبيَّن إلى إصابة قوم بجهالة، ثم لا يبقى للإنسان بعد ظهور الحقيقة إلا الندم.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6].

ليست بطئًا باردًا في كل شيء؛ هي رفض لأن تدفع إنسانًا ثمن خبر لم يأخذ من التثبت حقه. وقد يكون التبين أحيانًا سهلًا: سؤال واحد لصاحب الشأن، أو قراءة النص كاملًا بدل جملة مبتورة، أو معرفة من شهد الواقعة أصلًا، أو تأجيل الحكم إلى أن يصل ما لم يصل بعد.

وفي الحياة اليومية قلّ أن نسمي ما نصنعه «حكمًا»، مع أننا نمارسه كثيرًا. صديق يقص عليك ما وقع له مع رجل تعرفه، وموظف يشرح سبب إخفاق فريقه، وابن يشكو أخاه، وزوج ينقل موقفًا عن زوجه، وطالب يحدثك عن معلمه. وفي دقائق يصير الغائب داخل قلبك في موضع لم يختره، وربما لا يعلم أنه حوكم أصلًا.

أول قصة تسمعها تملك ميزةً خطيرة: أنها تدخل إلى أرض خالية. ثم حين يأتي غيرها لا يدخل إلى الذهن نفسه الذي دخلت إليه الأولى؛ يدخل إلى ذهن صار فيه بناء سابق. ولذلك يحتاج الإنسان إلى تربية دقيقة: هذه رواية صاحبها، وليست الواقعة كلها لمجرد أنها وصلت أولًا.

وفي الباب نفسه يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]. ولم يقل: اجتنبوا الظن كله. فالإنسان لا يعيش بلا تقدير ولا قرائن، والقرآن نفسه أثنى في الإفك على ظن المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيرًا. إنما المحذور أن يألف القلب سوء الظن حتى يصير عنده بديلًا مريحًا عن العلم.

قد يكون الخبر ضعيفًا، لكن لأنه يوافق صورةً قديمة في نفسك تقول: هذا يشبهه. وقد لا تعرف ماذا وقع، لكنك تعرف أنك لا ترتاح إليه، فيبدو الاحتمال الأسوأ أقرب. وهنا يعود امتحان الهوى الذي مر بك من قبل، لكن من باب آخر: هناك كان السؤال من يقودك وأنت تزن، وهنا السؤال أسبق: هل سمحت لما تميل إليه أن يملأ الفراغات في قصة لم تكتمل؟

والقوّام لا يحتاج أن يعيش شاكًّا في كل خبر، ولا أن يعطل حياته حتى يصل إلى يقين لا يتيسر. إنما يتعلم مراتب الكلام: هذا أعلمه، وهذا أخبرني به فلان، وهذا استنتجته، وهذا مجرد احتمال. وحين يفرق بينها في قلبه ولسانه لا يعطي الاحتمال ثوب العلم، ولا يعطي النقل ثقل الشهادة المباشرة. وهذا وحده يخفف سرعة الإدانة، ويترك للغائب مكانًا، ويمنع الخبر من أن يكبر في الطريق أكثر مما كان عند مصدره.

لكن قد تنتقل المسألة من خبر سمعته إلى خصومة تحتاج أن تحكم فيها. وهنا لا يكفي أن تقول: سأكون منصفًا؛ لا بد أن تسمع ما لم تسمعه بعد.

لا تحكم قبل أن تسمع

قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**إذا تقاضى إليك رجلان، فلا تقضِ للأول حتى تسمع كلام الآخر، فسوف تدري كيف تقضي**». قال علي رضي الله عنه: «فما زلت قاضيًا بعد». رواه الترمذي وحسنه.

لم يقل له: كذّب الأول حتى يأتي الثاني، ولم يقل: كل روايتين سواء. إنما نهاه أن يجعل أسبقية الكلام أسبقيةً في الحكم. وهذه وصية قضائية في أصلها، لكن أثرها في القلب أوسع من المحكمة. كم من مرة حكمت على موقف كامل لأنك سمعت أكثر الناس قدرةً على الوصول إليك، لا أكثرهم حقًّا؟ وكم من غائب صار كلامه لاحقًا «دفاعًا» فقط، لأن الرواية الأولى استولت على موضع الأصل؟

إن سماع الآخر ليس مجاملةً له؛ هو احترام للحق الذي قد يكون عنده جزء منه لم يصل إليك بعد. ولذلك فإن القسط أحيانًا ليس في الجواب الذي تعطيه، بل في امتناعك عن الجواب قبل أوانه: أن تقول لم أسمع منه، ولا أعرف بقية القصة، وأن تمنع قلبك من لذة الحسم السريع. هذه ليست عبارات ضعف؛ قد تكون من أقوى صور القيام لله، لأنك رفضت أن تصنع يقينًا أكبر من علمك.

الطريق إلى الحق جزء من العدل

وإذا كان الخبر العابر يحتاج حراسة في لحظة السماع، فإن الحقوق التي تعيش شهورًا وسنين تحتاج ذاكرةً لا تتشكل كل مرة على قدر مصلحة أصحابها. لذلك تأتي أطول آية في القرآن، لا في حرب ولا في حد، بل في دَين بين الناس:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282].

حتى الكاتب دخل في القسط. ليس صاحب المال، ولا صاحب الدين، وربما لا ينتفع من النتيجة بشيء، لكن حرفًا يكتبه أو يتركه، وقيدًا يضبطه أو يهمله، يمكن أن يصنع بعد زمن فرقًا في حق إنسان.

ثم لا يترك الوحي الضعيف لأنه أضعف قدرةً على حفظ حقه، فيقول: **﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾** [البقرة: 282]، ثم الشهادة، ثم هذا الوصف الذي يكشف أن الطريق نفسه داخل في ميزان العدل:

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: 282].

تأمل: لم يقل «أضمن للمعاملات» فقط، بل قال: **﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾** [البقرة: 282]. فالكتابة، والشهادة، وحفظ ما يمكن أن تنساه النفوس، والعناية بمن لا يستطيع أن يحمي حقه بنفسه؛ ليست ترتيبات منفصلة عن عبادة القسط. الله الذي أمرك أن تعدل في النتيجة يعلم أن النتيجة قد لا تصل سليمةً إذا كان الطريق إليها هشًّا.

وهذا من أوسع ما يغير فهم الإنسان للعدل. قد يظن أنه عادل لأنه إذا عُرضت عليه الوقائع حكم بينها بإنصاف، لكن ماذا لو كانت الوقائع التي عرضت عليه لم تحفظ أصلًا؟ ماذا لو كان القوي أقدر على صناعة السجل، والضعيف لا يملك ما يثبت؟ ماذا لو تركنا كل شيء للذاكرة ثم اختلفت بعد عامين؟ أحيانًا يبدأ القسط في اليوم الذي لم تقع فيه الخصومة بعد: في ورقة تحفظ، وفي شاهد لا يتوارى، وفي عبارة لا تترك عمدًا غائمة لأن الغموض ينفعك.

ثم يأتي القرآن إلى الشاهد نفسه، إلى إنسان صار عنده جزءٌ من الحقيقة، فيقول:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 283].

يمكن للحق أن يضيع من غير أن يقول أحد كذبة؛ يكفي أن يسكت من يعلم. ثم يصل الخلل إلى مكان لا تراه الأوراق:

﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: 283].

قد يعرف الإنسان شيئًا لازمًا للصورة، ثم يحب لو لم يُسأل عنه. وقد يُسأل فيجيب بنصف الحقيقة، لا بجملة كاذبة. كل ما قاله صحيح، لكنه يعرف أن ما تركه لو قيل لتغير الحكم في ذهن السامع.

والله يعلم ما لم تقل.

هذه من أكثر الحقائق إزعاجًا للنفس في هذا الباب؛ لأن الإنسان يستطيع أن يختبئ من الناس داخل الدقة الحرفية. يقول: أنا لم أكذب. نعم، لكن هل أديت ما تعلم أنه لازم للحق؟ قد تذكر ما وقع بعد ردّ صاحبك وتحذف ما سبقه، أو تنقل كلمة صحيحة وتترك قيدًا كان يغير معناها، أو تقول كل ما يضر خصمك وتنسى وحدك كل ما ينفعه. ويمكن لكل جملة منفردة أن تكون صحيحة، ثم تكون الصورة التي صنعتها كاذبةً في أثرها.

ولذلك فالقسط لا يطالبك فقط أن يكون في قاموسك صدق؛ يريد أن يكون في بناء الرواية أمانة. والإنسان إذا خاف الله هنا صار أصعب على نفسه. يسأل: لو سمع السامع ما أعرفه أنا كله، هل سيخرج بالصورة نفسها التي خرج بها من كلامي؟ وإذا كان الجواب لا، عرف أن الصمت والانتقاء قد يصنعان من الظلم ما تصنعه الجملة الباطلة.

لكن الخلل لا يأتي دائمًا من شاهد يخفي أو راوٍ ينتقي. أحيانًا يدخل الولاء نفسه إلى الخصومة، فيصير الإنسان قويًّا في بناء الحجة لا لأنه رأى الحق، بل لأنه يريد أن ينقذ من يحب من تبعته.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105].

الكتاب بالحق، والحكم بما أراك الله، ثم: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]. وتذكر روايات التفسير في سبب نزول هذه الآيات قصة بني أبيرق، وقد اختلف في بعض تفاصيل ما نُقل فيها، ولا نحتاج أن نجعل تفاصيل الروايات هي التي تحمل المعنى؛ القرآن نفسه يكفينا:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: 107].

ثم:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: 112].

هنا انتقل الخلل من سرعة التلقي إلى صناعة النتيجة. يُراد إنقاذ صاحب، فيُنتقى ما يخفف عنه، ثم يُدفع الثمن إلى الجهة الأخرى؛ وقد ينتهي الأمر بأن يحمل بريء ما لم يفعل لأن المدافع كان أبلغ في حماية من يحب.

ليس الوفاء أن تعطي الباطل حجة. وقد تكون من رحمة الله بصاحبك أن ترفض أن تتحول إلى لسان لخيانته؛ أن تتركه يواجه خطأه اليوم خير من أن تساعده على حمله إلى غد. ولهذا يرفع القرآن المشهد كله من مجلس الناس إلى مجلس لا تنفع فيه المحاماة:

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: 109].

قد تنجح الحجة هنا ويخرج صاحبك والناس معه، لكن سؤال الآية يهدم وهم النصرة من أصله: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: 109]؟ ما تحميه بالباطل اليوم قد لا يكون إلا تأخيرًا لوقوفه مع الحق.

ومع ذلك قد تكون الروايات كلها أمامك، وقد تسمع الطرفين، ولا يكون الخلل في المادة، بل فيك أنت لحظة النظر. قال رسول الله ﷺ: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان». متفق عليه.

الغضب لا يحول الحق إلى باطل، لكنه قد يضيّق مجال الرؤية، ويعجل الحكم، ويجعل بعض التفاصيل أثقل مما كانت ستكون بعد أن يهدأ القلب. ولهذا لم يكتف الشرع بأن يقول للقاضي: تذكر أنك عادل،

منعه من الحكم في تلك الحال. وفي هذا تواضع عظيم للنفس البشرية: أحيانًا من العدل أن تعرف أنك الآن لست في أفضل حال للعدل.

الحديث في القضاء، فلا نجعله حكمًا عامًا على كل قرار يقع في حال غضب. لكن أثره التربوي واضح: لا تقدس انطباعك لمجرد أنه انطباعك، ولا تعامل حالك النفسية كأنها لا تؤثر في رؤيتك. كم من كلمة سميناها «حسمًا» لأنها خرجت في ذروة الغضب، ثم رأينا بعد الهدوء أن الحسم كان في شعورنا أكثر منه في الحقيقة.

وحتى إذا هدأت، وسمعت، ووثقت، بقي حد آخر لا تستطيع الإجراءات البشرية أن تلغيه: الناس متفاوتون في قدرتهم على الكلام.

حين تكون الفصاحة أقوى من صاحب الحق

قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه». متفق عليه.

قف عند هذه الحقيقة وهي تقال على لسان رسول الله ﷺ. القاضي يحكم بما يسمع ويظهر، لا بعلم الغيب. وقد يكون أحد الخصمين أقدر على ترتيب حجته، وأفصح في عرضها، وأسرع إلى مواضع التأثير، وقد يكون صاحب الحق مرتبكًا، قليل البيان، لا يعرف كيف يضع ما عنده في الكلمات التي يحتاجها المجلس. والبلاغة نعمة إذا حملت حقًّا، لكنها لا تزيد الحق مقدار ذرة، وضعف البيان لا ينقص الحق مقدار ذرة، ومع ذلك يمكن في عالم البشر أن تؤثر القدرة على العرض في النتيجة الظاهرة.

ومع كل ما سبق يبقى حد لا تلغيه الكتابة ولا السماع ولا الشهادة: ستبقى بشرًا تحكم بما ظهر لك، ولا تملك علم الغيب.

فماذا لو جاء الحكم لك؟ ماذا لو اقتنع المجلس؟ ماذا لو كان خصمك أضعف منك حجة، ولم يعرف كيف يثبت ما تعلم أنت أنه حقه؟

يكمل النبي ﷺ: «فمن قطعتُ له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه».

قف هنا.

صدر حكم بحسب ما ظهر للنبي ﷺ من كلام الخصوم، ومع ذلك لا يستطيع الحكم أن يحوّل في علم الله ما ليس لك إلى حق لك. الورقة لا تغيّر الحقيقة، وفصاحتك لا تطهر الحرام، وعجز خصمك عن الإثبات لا يمنحك في باطن الأمر شيئًا تعلم أنه له.

«فإنما أقطع له به قطعةً من النار».

قطعة من النار.

قبل قليل كان امتحانك في شيء يخرج من فمك: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15]. أما الآن فالامتحان في شيء قد يدخل يدك. الناس يقولون: حكموا لك، والورق يقول: صار باسمك، والخصومة انتهت، وقد يهنئك من حولك لأنك ربحت؛ لكن إن كنت تعلم أنه من حق أخيك، فاسم آخر ينتظره عند الله: قطعة من النار.

قد تحملها إلى بيتك، وتنتفع بها سنوات، ويموت الخصم قبل أن يستردها، ولا يعلم أحد بعد ذلك كيف بدأت القصة.

لكنها لم تغلق عند الله.

وهذا من أصفى مواضع القيام بالقسط: تنتهي الإجراءات كلها لصالحك، ثم لا يبقى بين يدك وبين ما ليس لك إلا علمك بأن الحق لم يتغير.

فهل تمد يدك إلى القطعة؟

هذا موضع لا يستطيع النظام أن يحرسك فيه دائمًا. أنت الذي تحرس نفسك لله. وقد يكون صاحب الحق قد عجز، والقاضي قد حكم، والناس قد انصرفوا؛ لم يبق إلا عبد يعلم، ورب يعلم أنه يعلم. وهذه من أصفى صور العبودية في القسط؛ لأنك لا تترك الشيء خوفًا من أن تُكشف، بل خوفًا من أن تلقى الله به.

ولا يعني هذا أن يشك الإنسان في كل حكم ثبت له، أو أن تصبح الأحكام الظاهرة عديمة القيمة. القضاء يجري بما يظهر من الحجج والبينات، والناس لا يكلفون علم الغيب. الحديث لا يهدم القضاء؛ يهدم وهمًا في القلب: أن الحكم البشري يستطيع أن يجعل لك عند الله ما تعلم أنت أنه ليس لك.

وفيه عزاء للمظلوم أيضًا. قد يعجز عن البيان، أو تضيع منه البينة، أو يخسر ظاهرًا؛ لكن الحق لا يتبخر لأنه لم يستطع أن يحمله إلى ورقة أو عبارة قوية. عند الله لا تضيع المادة الناقصة، ولا تختلط عليه الروايات، ولا يغلبه ألحن الخصمين.

ومن هنا يعود قوله تعالى بعد الشهادة حيًّا:

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 283].

يعلم ما سمعته وما نقلته، وما عرفته وما ظننته، وما كتمته مع قدرتك على بيانه، وهل سمعت الغائب قبل أن تحكم عليه، وماذا كتبت، وماذا تركت غامضًا، وكيف استعملت قدرتك على الكلام، وماذا صنعت حين جاء الحكم على الصورة التي تحب.

ومتى حضر هذا العلم في القلب لم تعد الكتابة ورقًا، ولا التبين حذرًا اجتماعيًا، ولا سماع الطرف الآخر لياقة، ولا الشهادة خدمةً تؤديها متى شئت. تصير كلها عبادة؛ لأنك تريد أن يصل الحق إلى موضعه كما أمرك الله، ثم تريد أن تلقاه سبحانه وليس في يدك حق لإنسان حملتك مهارتك أو قوّتك على أخذه.

وحين يستقر هذا المعنى في القلب تتغير طريقة عيشه للخبر والخصومة. يسمع خبرًا فيترك في قلبه مساحةً لما لا يعلم، ويغيب أحد أطراف القصة فلا يجعل الغياب إقرارًا، ويعرف شيئًا لازمًا للحق فلا يريح نفسه بكلمة: لم أكذب، ويكون صاحبه هو المخطئ فلا يمنحه ولاؤه حقًا جديدًا، ويغضب فيعرف أن السرعة ليست دائمًا قوة، ويكون أبلغ من غيره فلا يظن أن جودة عبارته جزء من ميزان الحق. وحين يصدر الحكم له يبقى قادرًا على سؤال لا تستطيع الورقة أن تجيبه: ماذا لي عند الله؟

الحق عند المؤمن ليس مادةً يستعملها ليغلب، بل أمانة يعبد الله في الطريق إليها كما يعبده بعد أن يصل إليها. ولهذا كان مشهد الإفك شديد القرب من خاتمة الحديث، على بُعد ما بينهما: هناك كلمة خرجت من اللسان وظنها صاحبها هينة، وكانت عند الله عظيمة، وهنا شيء دخل اليد وظنه صاحبه مكسبًا، وكان قطعةً من النار.

بين اللسان واليد يمتد طريق كامل من القسط. قد تنتهي الرسالة ويبقى أثرها، وينفض المجلس ويبقى حق الغائب، وتنتهي أوراق الأرض ويبقى حق السماء، ويربح الإنسان الحكم ويكون الفوز الحقيقي أن لا يأخذ.

وبعد هذا كله يبقى امتحان آخر. فقد يصل إليك الحق كاملًا، لا روايةً ناقصة ولا حكمًا ملتبسًا. تعرف ما لهذا الإنسان، وتعرف ما عليك، ولا تحتاج مزيدًا من الشهود ولا السماع. ثم لا تنكر الحق كله؛ تنقصه فقط، تُبقي الاسم وتخفف المقدار، وتعترف أنه يستحق لكن أقل مما يستحق.

هنا لا يكون الخلل في الطريق إلى معرفة الحق، بل في الوزن الذي تعطيه للحق بعد أن عرفته. هذه المرة لا تحتاج إلى معرفة جديدة؛ تحتاج أن توفي.

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ [هود: 85]

ويبدأ لون من الظلم أخفى من السلب الصريح؛ لأن النفس تستطيع أن تقول وهي مرتاحة: أنا لم آخذ حقه كله. أعطيته شيئًا. ذكرت له فضلًا. دفعت له بعض ما يستحق. أنصفتُه في الجملة. لكن القسط لا يسأل فقط: هل تركت له شيئًا؟ يسأل: هل أعطيته ما له؟

والقرآن يملك لهذا النقص اسمًا دقيقًا:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: 85].

البخس ليس دائمًا أن تمحو الحق من أصله؛ قد يكون أن تعترف به ثم تنقص قدره. ولهذا جاءت الكلمة في سياق ميزان لا يحتاج أن يُكسر حتى يظلم؛ يكفي أن يميل كل مرة إلى جهة صاحبه.

والطبري يفسر ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: 85] هنا بحقوق الناس التي يجب أن تُوفَّى لهم، «كيلًا أو وزنًا أو غير ذلك». وهذه توسعة مهمة، لكنها ليست بابًا مفتوحًا لكل شعور شخصي بالاستحقاق؛ الذي يحرسه النص هو الحق الذي ثبت أنه لصاحبه. أما المواضع التي لا تضبط بمقدار مالي — كالقول والتقييم ونسبة الفضل — فسنصل إليها من باب قرآني آخر صريح: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152].

ولفهم ثقل الكلمة يأخذنا القرآن إلى قوم شعيب عليه السلام. لم يبدأ شعيب معهم من السوق وحده، بل من أصل العبودية:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 84].

ثم، في الآية نفسها:

﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: 84].

كأن السوق هنا ليس منطقةً خارج الدين. العبادة التي تبدأ بتوحيد الله تدخل مع الإنسان إلى اللحظة التي يزن فيها لغيره، إلى المقدار الذي يزيده أو ينقصه، إلى الجزء الذي يستطيع أن يقتطعه لنفسه ولا يراه الناس. لا ينفصل ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: 84] عن اليد التي تمسك المكيال، لأن العبد هو العبد في المسجد والسوق، والله الذي تعبده هو الله حين يصير الحق في كفة غيرك.

ثم يقول شعيب عليه السلام لقومه كلمةً تزيد المشهد كشفًا:

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: 84].

رجح الطبري أنهم كانوا في سعة من خير الدنيا. لم يكن البخس بابًا فرضته عليهم ضرورة لا يجدون غيرها؛ الخير حاضر، ومع ذلك تريد النفس زيادةً أخرى من حق غيرها. وهنا تنكشف إحدى حيل البخس: ليس كل من ينقص الناس محتاجًا إلى ما أخذ، وقد لا تكون المشكلة في قلة ما عنده، بل في عجزه عن أن يترك في يد غيره ما يستطيع أن يضمه إلى نفسه.

ثم يأتي الأمر أوضح:

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85].

﴿أَوْفُوا﴾ [هود: 85].

ليست القضية أن تقترب من المقدار، ولا أن تعطي ما يكفي حتى لا يشتكي صاحب الحق. الإيفاء تمام. والطبري يفسر الآية بإعطاء أهل الحقوق حقوقهم تامةً بغير بخس ولا نقص.

وهذا يجعل القسط أحيانًا شديد البساطة وشديد الكلفة في الوقت نفسه: أن تعرف المقدار، ثم لا تفاوض ضميرك عليه.

قد تكون الزيادة التي ستأخذها صغيرة في عينك، وقد يكون صاحبها لن يشعر، وقد يكون من المعتاد في السوق أن يفعل الناس ذلك. لكن الذي يعبد الله لا يسأل فقط: هل سيمر الأمر؟ يسأل: هل هذا لي؟

والآية لا تقف عند النقص نفسه، بل تلحق به: **﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** [هود: 85]. لأن البخس إذا صار عادةً لا يبقى حركةً صغيرة بين يد ويد؛ يتعلم الناس أن يحموا حقوقهم بالقوة بدل الثقة، وأن يبحث كل واحد عن طريقة يستوفي بها قبل أن يُنقصه غيره. وما يبدأ بزيادة يسيرة يأخذها شخص لنفسه يمكن أن يصير مناخًا كاملًا لا يطمئن فيه أحد إلى ميزان أحد.

والقرآن نفسه سمّى العثو فسادًا في السياق ذاته. فالنقص لا يمس صاحب الحق وحده؛ حين يألفه الناس تضعف الثقة بينهم، ويصير كل تعامل أقرب إلى معركة على من يستطيع أن يحمي حقه قبل أن يُنقص.

حين يكون لك ميزانان

ويكشف القرآن هذا الانقلاب في المعيار بصورة أشد وضوحًا في مطلع سورة المطففين:

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 1-3].

الصورة جارحة في وضوحها: حين يكون الحق لهم، يعرفون تمامه. يستوفون. وحين يكون الحق لغيرهم، يعرف الميزان لغةً أخرى: ﴿يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 3].

ليس العيب أنهم لا يفهمون معنى التمام؛ هم يفهمونه جيدًا عندما يأخذون. الخلل أن معيارهم يتغير بتغير اتجاه الحق.

وهذا يجعل السورة مرآةً للنفس التي تتقن الحساب في جهة وتنساه في الجهة الأخرى. والآيات في أصلها في الكيل والوزن، فلا نحولها إلى تفسير مباشر لكل علاقة بشرية؛ لكن صورتها التربوية نافذة: هل تعرف حقك بدقة لا تعرف بها حق غيرك؟

تتذكر موعد الناس معك بالدقيقة، ثم تتسع أعذارك حين تتأخر عليهم. تحفظ ما بذلته في عمل مشترك، ثم يهت في ذاكرتك ما بذله الآخرون. تستثقل أن يُنسب إليك نقص يسير، ثم تصف نقص غيرك بعبارة أكبر من قدره. تطالب أن يُفهم كلامك في أحسن سياقه، ثم تأخذ كلام خصمك من أقسى احتمال يحتمله.

ليس كل اختلاف في هذه الصور تطفيفًا، ولا كل تفاوت دليل جور؛ للوقائع فروقها. لكن السؤال يبقى مؤلمًا: هل يوجد في داخلك ميزانان، أحدهما شديد الدقة حين تكون الكفة لك، والآخر متسامح حين تكون الكفة عليك؟

للسان ميزانه أيضًا

والقرآن نفسه لا يترك معنى الوزن محصورًا في الرقم ثم يطلب العدل في القول في موضع آخر بعيد. في وصايا سورة الأنعام تأتي الأوامر متجاورة:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: 152].

في الكيل: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: 152]. وفي القول: ﴿فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152].

وهذا يفتح بابًا بالغ الدقة، مع حراسة مهمة: آية هود جاءت في حقوق الناس في الكيل والوزن وما يجب وفاؤه، فلا نجعل كل نقص في الثناء «بخسًا» بالمعنى الفقهي نفسه. لكن القرآن هنا يجمع في وصية واحدة بين إيفاء الميزان والعدل في القول، والطبري يفسر ﴿فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152] بقول الحق والإنصاف وترك الجور. لذلك يحق للقارئ أن يسأل لسانه كما يسأل يده: هل أعطيت الحقيقة مقدارها، أم أن علاقتي بصاحبها غيّرت وزن العبارة؟

تعرف أن شخصًا أحسن في موضع، لكنك تقول: فعل شيئًا لا بأس به. وتعرف أن صاحبك أخطأ، فتقول: اجتهد ولم يوفق. ثم يأتي الخطأ نفسه من شخص لا تحبه، فتختار له كلمةً أثقل. ليست المشكلة في وجود ألفاظ مختلفة دائمًا؛ السياق قد يقتضيها. المشكلة أن تكون الحقيقة واحدة، ويكون ميزان اللغة تابعًا لعلاقتك بصاحبها.

وقد يقع نقص العدل في توزيع الفضل أيضًا. ينجح عمل شارك فيه كثيرون، فيسهل على الإنسان أن يرى بوضوح الساعات التي بذلها هو، والأفكار التي جاءت منه، والقرارات التي اتخذها، ثم تتداخل أدوار الآخرين في خلفية المشهد حتى يصير النجاح عند الناس قريبًا من اسمه وحده.

هو لم يقل: لم يفعلوا شيئًا. لم يحتج إلى هذه الكذبة الكبيرة. يكفي أن يروي النجاح بنسبةٍ تجعل ما له كاملًا وما لغيره ناقصًا.

وهذا من صور نقص العدل التي يصعب على النفس أن تعترف بها: ليس إنكارًا صريحًا، بل نقصان في الوزن.

وفي سياق إيفاء الكيل والميزان تأتي حراسة شديدة الرحمة والدقة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152]. يفسر الطبري ذلك بأن الله أمر صاحب الحق بأخذ حقه، وأمر المعطي بإيفائه، ولم يكلف أحدهما زيادةً أو نقصًا يخرجه عن وسعه؛ وبيّن القرطبي أن ما لا يمكن للبشر التحرز منه من فروق يسيرة فهو معفو عنه.

فالآية في موضعها تحرس ما يقدر عليه البشر في إيفاء الكيل والميزان، ولا تجعل ما يعجزون عن التحرز منه ظلمًا متعمدًا. وأما في المقادير التي لا تنضبط برقم ـ من قولٍ وتقييم ونسبة فضل ـ فلن تملك دائمًا يقينًا حسابيًا، ولا ضمانًا أن كل عبارة ستصيب القدر الأمثل. هناك نستفيد أصل بذل الوسع ولا نجعل ذلك تفسيرًا مباشرًا للآية: يبقى الفرق بين خطأ من تحرّى العدل صادقًا، وبين نفس تعرف أنها تنقص لأنها تريد أن يبقى لها أكثر.

وهذا يحرر القسط من وسواس الدقة الكاملة، من غير أن يحوله إلى باب للتساهل: افعل ما في وسعك أن تزن بالحق، ثم لا تجعل عجزك عن الكمال عذرًا لنقص تعرفه وتريده.

حين تستوفي ولا توفي

وفي حديث قدسي رواه البخاري صورة شديدة الوضوح للاستيفاء من جهة، ومنع الحق من الجهة الأخرى. يقول الله تعالى في أحد الثلاثة الذين يكون خصمهم يوم القيامة:

«ورجلٌ استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره».

تأمل دقة اللفظ نفسه: «**فاستوفى منه**». أخذ منه العمل الذي استأجره عليه، واستوفى المنفعة لنفسه، ثم حين انتقل الحق إلى الجهة الأخرى اختل الميزان فلم يعطه أجره.

ولم يقل الحديث فقط إن الأجير سيطالبه. قال الله تعالى: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة**».

فما أثقل أن يستوفي الإنسان حقه من عبد، ثم يجعل الله نفسه خصمه من أجل الحق الذي منعه ذلك العبد.

تخيل المشهد من جهة الأجير: أعطى وقته وقوته، وانتهى العمل، وربما خرج من المكان وهو ينتظر شيئًا معلومًا له. صاحب العمل أخذ المنفعة كاملة، ولم يبق في يده شيء يطالب به من الأجير؛ ثم بقي حق الأجير عنده هو. هنا لا يحتاج الظلم إلى تزوير عقد ولا إلى سرقة خفية؛ يكفي أن يكون الاستيفاء حاضرًا حين تأخذ، والغفلة أو المماطلة حاضرةً حين تعطي.

فالمشهد لا يترك ضعف الأجير تفصيلًا هامشيًا. أن يكون صاحب الحق محتاجًا أو قليل الحيلة أو عاجزًا عن المطالبة لا يجعل ما له أخف وزنًا؛ بل يزيد قبح أن يستند القوي إلى هذا الضعف وهو يعلم أنه استوفى ما له كاملًا.

وقد تقع هذه الصورة في مكان لا يسمى عند الناس ظلمًا كبيرًا. رب عمل يؤخر أجرًا وهو قادر، أو مسؤول يستنفد جهد الناس ثم يقلل عند التقدير من قيمة ما صنعوا، أو إنسان يطلب خدمةً كاملة ثم إذا جاء وقت المقابل بدأ يفتش عن كل نقص صغير ليخفض ما عليه. وقد تختلف هذه الصور في أحكامها وتفاصيلها، لكن الحديث يضع أمام القلب أصلًا لا يخطئه: لا تجمع تمام المنفعة لنفسك ونقص المقابل على غيرك.

وإذا دخل هذا الأصل إلى البيت والعمل والعلاقات، تغيّر شيء عميق في الإنسان. لا يعود همه أن يتأكد أن أحدًا لم يأخذ منه زائدًا، بل أن يتأكد أيضًا أنه لم يأخذ من أحد ناقصًا.

وهذه نقلة صعبة؛ لأن النفس أقدر على الشعور بما فُقد منها من شعورها بما حرمته غيرها.

إن تأخر عليك حقك ليلةً ربما بقي في نفسك أيامًا، أما حق غيرك إذا تأخر عندك فقد يتحول بسرعة إلى بند في جدول مزدحم. وإذا لم يشكُ صاحبه، أو كان أضعف من أن يطالب، أو نجل من التذكير، ازداد خطر أن يهبط حقه في ترتيب أولوياتك.

القسط يرفض أن يكون ارتفاع صوت صاحب الحق جزءًا من مقدار حقه. لا يزيد الحق لأنه صاح صاحبه، ولا ينقص لأنه استحيا، ولا يصبح مال الضعيف أرخص لأن استرداده أصعب.

ولهذا كان قول شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: 85] أوسع في أثره من مجرد سؤال: هل سرقت؟ قد يكون السؤال الأصدق: هل أعطيت كل إنسان ما تعلم أنه له؟

وليس المراد أن تتحول إلى محاسب مرهق لكل ذرة من العلاقات، ولا أن تساوي بين أشياء فرق الله بينها. القسط ليس تماثلًا آليًا، ولا إحساسًا مرضيًا بأن كل تفاوت ظلم. إنما هو أن تتبع الحق حيث ثبت، وأن لا تجعل قربك أو مصلحتك أو قدرتك على التسمية سببًا لتغيير وزنه.

ومن أخطر صور نقص العدل في القول أن يلبس أحيانًا ثوب «الموضوعية». تقول عن إنسان: أنا فقط أصف الواقع. لكن الوصف نفسه يحتاج ميزانًا. هل ذكرت حسنته بقدرها كما ذكرت خطأه بقدره؟ هل فرقت بين زلة ومسار؟ هل نسبت نتيجةً جماعية إلى الشخص الأكثر ظهورًا وذاب حق من وراءه؟

قد لا تكون كل هذه الصور حقوقًا مالية قابلةً للقضاء، لكن بينها وبين معنى العدل في القول صلةً مباشرة يفتحها القرآن نفسه بقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152]. والعبد لا يريد أن يكون لسانه ميزانًا ناقصًا كما لا يريد أن تكون يده ميزانًا ناقصًا.

وكلما اتسعت قدرة الإنسان على التقدير اتسع هذا الامتحان. من يقيّم موظفًا أو طالبًا أو عملًا يملك بعبارته وزنًا قد يفتح بابًا أو يغلقه. ليس المطلوب أن يرضي الجميع، ولا أن يوزع الثناء بالتساوي؛ المطلوب أن يخاف الله من أن ينقص إنسانًا لأنه لا يحبه، أو يزيد آخر لأنه يميل إليه، أو يغيّر معيار التقييم بعد أن يعرف اسم صاحب العمل.

وقد مر بك من قبل أن القرب والشنآن والهوى يمكن أن تحرف الحكم. الجديد هنا أدق: قد لا تغير النتيجة من «محق» إلى «مبطل»، لكنك تنقص الدرجة. تُبقي له الحق، لكن أقل مما يستحق. وهذا هو الباب الذي لا يراه كثير من الناس ظلمًا، لأنهم يقارنونه بالسلب الكامل فيجدون أنفسهم أبعد منه.

لكن القرآن لم يقل: لا تأخذوا أشياء الناس.

قال:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: 85].

حتى النقص له وزن عند الله.

ويعود مشهد المطففين أكثر إزعاجًا. ليست المشكلة أنهم يعيشون بلا معيار؛ عندهم معيار دقيق جدًا، لكنهم يستخدمونه في اتجاه واحد. ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: 2]. يعرفون تمام الحق حين يكون لهم، ثم يخسرون حين يكون عليهم.

ولهذا تسألهم السورة مباشرة بعد ذلك:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 4-6].

السورة لا تعامل التطفيف كفارق حساب صغير يذوب بانتهاء الصفقة. ترد صاحبه إلى رب العالمين، فينكسر وهم أن ما استطاع الإنسان أن ينقصه هنا قد خرج من الميزان كله.

ما أبقاه الله خير

ومن هذا الخوف يفتح خطاب شعيب عليه السلام بابًا أدفأ وأبقى:

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86].

ثم تتم الآية: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86].

وهذه التتمة تمنع المعنى من أن يبقى أخلاقًا تُحسنها ما دامت العين عليك. شعيب عليه السلام لا يستطيع أن يقف على كل ميزان، ولا أن يراقب كل يد، والطبري يفسرها بأنه ليس رقيبًا عليهم عند كيلهم ووزنهم: هل يوفون الناس أم يظلمونهم. فهناك دائمًا موضع ينتهي عنده رقابة البشر، ويبدأ فيه صدق الإيمان.

قد تستطيع المؤسسة أن تضع نظامًا، والمدير أن يراجع، وصاحب الحق أن يطالب؛ لكن لا نظام يستطيع أن يدخل كل نية، ولا مدير يقرأ كل عبارة قبل أن تخرج، ولا صاحب حق يعرف دائمًا أين نُقص. ولذلك جاءت قبلها مباشرة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86]. كأن أصدق حارس للميزان في اللحظة التي لا يراك فيها أحد هو أن تعرف أن الله يراك.

هذه ليست فقط كلمة تواسي من ترك الحرام؛ هي إعادة تعريف للربح. وقد نُقلت في ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ [هود: 86] عبارات عن السلف ترجع إلى الرزق والطاعة والوصية وحظ العبد من الله، ورجّح الطبري ـ بالنظر إلى سياق الكيل والميزان ـ أن ما أبقاه الله لهم بعد إيفاء الناس حقوقهم خير مما يبقى لهم بخس تلك الحقوق. وهذا هو المعنى السياقي الذي نبني عليه هنا. ومنه يفتح للقلب باب أوسع في العبودية: ما لا يحل لك لا يصير خيرًا لمجرد أنه بقي في يدك، والإيفاء لا يفقر من وثق بمن رزقه.

الربح ليس أكبر رقم تستطيع أن تخرج به من الصفقة، ولا أكبر قدر من الفضل تستطيع أن تجمعه لاسمك، ولا أكبر منفعة تستطيع أن تستوفيها قبل أن ينتبه صاحبها. الربح أن تعطي الناس حقوقهم، ثم تنظر إلى ما بقي في يدك وتقول: هذا الذي أبقاه الله لي، وهو خير.

وقد يكون أقل عددًا، لكنه أنظف. وقد يكون أقل ظهورًا، لكنه أبرك. وقد تضطر معه أن تقول: هذا الفضل ليس لي وحدي. أو: هذا الإنسان يستحق أكثر مما تمنيت أن أعطيه. أو: هذا المال ليس لي ولو كنت قادرًا على إبقائه. أو: هذه الكلمة لو قلتها كاملة سترفع من لا أحب، ومع ذلك هي الحق.

فتصبح ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ [هود: 86] عبوديةً يومية. لا تقتصر على ميزان السوق؛ هي الثقة بأنك لا تحتاج أن تأكل من حقوق الناس حتى تكمل نفسك.

الله هو الذي رزقك قبل أن تبخس، وهو القادر أن يبارك لك بعد أن توفي. والذي تخشى أن ينقص من يدك إذا أعطيت صاحبه حقه هو في ملك الله أصلًا. فلماذا تطلب الزيادة من طريق يكرهها الله لك؟

إن كان حق غيرك مالًا فأوفه، وإن كان كلمةً لازمة للعدل فلا تنقصها، وإن كان فضلًا تعلمه فلا تضعه في الظل لأن ظهوره يزاحم صورتك، وإن كان جهدًا استوفيته فلا تجعل ضعف صاحبه بابًا لتأخير مقابله أو تقليله.

ثم لا تفعل ذلك وأنت تشعر أنك «تنازلت». أنت لم تتفضل حين أعطيت الحق؛ إنما أعدت الشيء إلى وزنه.

والفضل الحقيقي أن يرزقك الله قلبًا يطمئن بعد الإيفاء، لا قلبًا يظل يتحسر على الجزء الذي لم يستطع أن ينتزعه.

ومن هنا يظهر فرق عميق بين القسط والكرم. قد تتنازل من حقك كرمًا، وقد لا تتنازل، وكلاهما قد يكون مشروعًا بحسب الحال. أما حق غيرك فليس مادةً لكرمك أصلًا. لا تمدح نفسك لأنك أعطيته إياه، ولا تشعر أنه مدين لك لأنك لم تبخسه.

هو حقه.

وأنت عبد أُمرت أن توفي.

وحين يفهم الإنسان هذا تهدأ حاجته إلى أن يُمدح على كل عدل فعله؛ فالقسط ليس بطولةً إضافية يتزين بها، بل قيام لله. ربما لا يعلم صاحب الحق أصلًا كم كان في استطاعتك أن تنقصه ولم تفعل، وقد تمر كلمةٌ عدّلتها في تقرير، أو اسمٌ أعدته إلى موضعه، أو منفعة رفضت أن تأخذها، من غير أن يعرف الناس شيئًا عن الكلفة التي قاومتها.

يكفي أن يكون الحق قد عاد إلى موضعه لله.

وعند ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [هود: 86] تنقلب المسألة من حساب المقدار إلى سؤال الثقة: هل تظن أن إيفاء الناس حقوقهم ينقصك، أم تؤمن أن ما أبقاه الله لك بعد الإيفاء خير مما تجمعه إلى نفسك من حق غيرك؟

في كل هذه الصور مشكلة واحدة تتكرر بوجوه مختلفة: نفسٌ تريد أن يكون الحق كاملًا إذا دخل إليها، وناقصًا إذا خرج منها.

والقوّام بالقسط يتعلم شيئًا آخر:

ميزاني واحد لأن ربي واحد.

لا يتغير الحق حين تتغير الجهة. لا يصبح النقص مقبولًا لأنه سيبقى عندي، ولا يصبح الإيفاء خسارةً لأنه سيخرج من يدي. ما لي آخذه بحق، وما عليّ أؤديه بحق، وما يبقى بعد ذلك فبقية الله.

وهذا هو الغنى الذي لا يعرفه المطفف. هو يظن أنه يحتاج الزيادة التي أخذها من الناس ليكمل ربحه، أما المؤمن فيعرف أن بعض الزيادة فقر، وأن بعض النقص في الحساب الظاهر هو تمام في ميزان آخر.

فإذا عرفت اليوم أن في يدك حقًا منقوصًا لإنسان، أو أن في لسانك وصفًا أنقصت فيه العدل، أو أن في سجل نجاحك فضلًا لغيرك لم يأخذ وزنه، فلا تجعل أول همك أن تثبت لنفسك أنك لست ظالمًا كبيرًا.

يكفي أن تسأل سؤالًا أبسط:

ما الذي بقي لصاحبه عندي؟

لأن الحق إذا نقص لم يختف. بقي له صاحب، وبقي في الذمة، وبقي السؤال الذي سيأتي بعد البخس أشد من سؤال اكتشافه: ماذا تفعل حين تعرف أنك بالفعل أنقصت إنسانًا حقه؟

ومعرفة هذا الخلل نعمة، لكنها ليست آخر القيام. فما بقي في الذمة لا تعيده المعرفة وحدها إلى صاحبه.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الحجرات: 9]

وقد تكون أول استجابة للنفس بعد أن ترى ذلك أن تقول: سأكون أعدل بعد اليوم. عزم صحيح، ومطلوب، لكنه لا يكفي وحده.

هذا حسن، لكنه لا يعيد حق الأمس إلى صاحبه. أن تصبح أعدل غدًا لا يرد درهمًا بقي عندك من أمس، ولا يصحح كلمةً ما زالت صورتها تعيش في قلب من سمعها. للمستقبل ميزانه، وللماضي ذمته.

للماضي ذمته

الوعي لا يمحو المظلمة، والندم لا يحول مال غيرك إلى مالك، والتوبة إلى الله لا تعني أن يصبح حق العبد الذي ظلمته شيئًا لا صاحب له. من تمام الرجوع أن تواجه ما تستطيع من أثر ما فعلت: ترد ما يجب رده، وتزيل ما تستطيع من الضرر، وتصحح ما أفسدته بقدر استطاعتك، وتطلب التحلل حيث يكون ذلك هو الطريق المشروع للإصلاح.

وليس لكل مظلمة صورة إصلاح واحدة. المال يرد إلى صاحبه، والقرار الجائر قد يحتاج أن يراجع أثره، والكلمة التي شوهت صورة إنسان قد تحتاج أن تُصحح عند من حملوا عنها الصورة، والفضل الذي نُسب إلى غير أهله قد يحتاج أن يعاد إلى اسمه. وبعض الأضرار لا تستطيع أن تجعلها كأنها لم تقع أصلًا؛ لكن عجزك عن محو الماضي كله لا يبيح لك أن تترك ما تستطيع إصلاحه منه.

فالعدل لا يكتمل حين تعرف موضع الخطأ فقط؛ يكتمل حين يقوم بك هذا العلم حتى يرجع الحق إلى موضعه ما استطعت.

وفي القرآن ترتيب يضيء هذا المعنى من موضعه الذي ورد فيه. فسياق سورة الحجرات في طائفتين من المؤمنين اقتتلتا، ثم بغت إحداهما، وليس كل ظلم فردي تنزيلًا مباشرًا لهذه الواقعة. لكن تأمل ترتيب الهداية فيها: حتى بعد أن تفيء الطائفة الباغية وترجع إلى أمر الله، لا ينتهي التكليف عند توقف البغي؛ يبقى إصلاح بالعدل. يقول تعالى:

﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

في موضع الآية نفسه: الفيء يوقف البغي، ثم يأتي الإصلاح بالعدل. وهذه دلالة لا تحتاج أن نحمّل السياق أكثر منها: التوقف عن الخطأ لا يجعل أثره كأن لم يكن. قد ينتهي الاعتداء، ويبقى للعدل عمل آخر.

وهذا معنى يحتاجه من اكتشف ظلمًا في حياته. ربما توقفت عن الفعل، لكن بقي أثره. توقفت عن الكلام، لكن بقيت الصورة التي صنعتها في قلب السامع. توقفت عن أخذ المال، لكن بقي المال القديم في يدك. انتهى القرار، لكن بقي إنسان دفع ثمنه.

القسط بعد الظلم لا يسأل فقط: هل توقفت؟

يسأل: ماذا بقي؟

وقد يكون هذا السؤال أشق من الاعتراف الأول؛ لأن الاعتراف يمكن أن يبقى في الداخل، أما الإصلاح فيخرج إلى الواقع. قد يقتضي مالًا، أو اعتذارًا، أو تراجعًا معلنًا، أو إعادة حق يغير صورتك أمام نفسك والناس. وقد تضطر أن تقول لإنسان أصغر منك: أخطأت في حقك. أو أن تصحح كلامًا دافعت عنه طويلًا. أو أن تعيد فضلًا لغيرك بعدما ارتبط النجاح باسمك.

ويعود قوله الذي واجهك من أول الطريق بصورة جديدة:

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: 135].

في أول الطريق كان المعنى: لا تغيّر الشهادة لأن الحق عليك. وفي آخره قد يصبح المعنى أشد قربًا: إذا علمت بعد زمن أن الحق كان عليك فعلًا، فلا تجعل مرور الأيام يحوله إلى حق ميت.

ليس كل قديم يسقط لمجرد أنه قديم.

ما دام اليوم قائمًا

ولهذا تأتي السنة بكلمة شديدة الوضوح لا تترك صاحب المظلمة عند شعور داخلي جميل. قال رسول الله ﷺ:

«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم». رواه البخاري

اليوم.

في الدنيا.

في الوقت الذي ما زال فيه المال مالًا، والكلمة كلمة، والباب يمكن أن يُطرق، والإنسان يستطيع أن يرد أو يصلح أو يطلب العفو على الوجه المشروع.

ثم يبين النبي ﷺ لماذا قال: «اليوم»: «**قبل أن لا يكون دينار ولا درهم؛ إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه**». فيتحول الحق

الذي كان يمكن أن ترده بمال، أو تصلحه بكلمة، أو تحلل منه في الدنيا، إلى قصاص من شيء كنت أحوج ما تكون إليه: عملك.

عندئذ يتغير معنى الربح والخسارة كله. قد يبخل الإنسان اليوم بمال، ثم يدفع غدًا من حسناته. وقد يرفض اعتذارًا لأنه سيكلفه شيئًا من صورته، ثم تكون كلفته يوم القيامة من عمل كان يرجو أن ينجيه. وقد يخرج من خصومة غالبًا ويظن أن سكوت خصمه أغلقها، ثم يجدها هناك دينًا لم يسقط.

في الدنيا تستطيع أن تحتفظ بالمال وتظن أنك كسبت، أو تحتفظ بالصورة وتظن أنك نجوت، أو تخرج من المجلس بلا تراجع وتظن أنك حفظت مكانتك. لكن الحق لا يقيس المكسب بما بقي في يدك اليوم فقط؛ هناك أيضًا ما قد يخرج من ميزانك غدًا.

ولهذا كان الأمر النبوي رحمة قبل أن يكون تهديدًا: «**فليتحلله منه اليوم**».

ما دام اليوم قائمًا، فباب الإصلاح لم يغلق.

هذه من أعظم نعم الدنيا التي لا نشعر بها: أن الخطأ فيها يمكن أن يُتبع برجوع، وأن المظلمة يمكن أن تُرد قبل أن تصبح عملة القصاص فيها حسنات وسيئات، وأن الإنسان يستطيع أن ينقص من ثقل يوم القيامة بفعل قد يكون مؤلمًا اليوم لكنه أهون من غد.

وربما كانت من رحمة الله بك أن أراك المظلمة قبل أن تموت عليها. فالإنسان يستطيع أن يعيش سنوات وهو يسمي ما عنده «وجهة نظر»، أو «حق إدارة»، أو «ردًّا مستحقًا»، ثم يفتح الله له بابًا يرى منه ما لم يكن يريد أن يراه. لا تجعل لحظة الانكشاف عذابًا إضافيًا تدافع فيه عن الماضي؛ اجعلها نعمةً تقودك إلى إصلاحه.

وقد يخيفك عدد ما تتذكره. لا تجعل كثرة الحقوق القديمة ذريعةً إلى ألا تبدأ بشيء. ابدأ بما تعرفه يقينًا، وبما تقدر عليه الآن. قد لا تستطيع أن تصلح كل أثر في يوم، لكنك تستطيع أن تكف عن إضافة يوم جديد إلى مظلمة قديمة. والقيام بالقسط هنا ليس حركةً مثاليةً واحدة تمحو التاريخ؛ قد يكون طريقًا من الرد والتصحيح والتحلل والسعي حتى تبلغ وسعك.

واسأل نفسك عن اسم واحد قبل أن تسأل عن قائمة طويلة: من الإنسان الذي تعرف أن له عندك اليومَ حقًا لم تؤده كما ينبغي؟ وما أول خطوة حقيقية تستطيع أن تفعلها قبل أن تغلق هذا اليوم؟

حين تدخل الحقوق في ميزان الحسنات

وقد تخدع النفس صاحبها من جهة أخرى. يقول: عندي صلاة وصيام وصدقة وأعمال خير كثيرة. وهذه نعم عظيمة، لكن حقوق الناس ليست مساحةً خارج العبادة تجعلها الطاعات غير مهمة.

ولهذا سأل النبي ﷺ أصحابه: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة**»، ثم سمّى ما جاء به معه من حقوق العباد: شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. ثم قال: «**فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار.** رواه مسلم.

المشهد ثقيل لأنه لا يعرض إنسانًا بلا حسنات.

يأتي بما تعب فيه.

بصلاة كان يرجوها، وصيام، وزكاة.

لكن معه قائمة أخرى: أسماء أناس لهم عنده حقوق.

ويفهم المؤمن أن الاستقامة مع الله لا تبنى على طريق يمر فوق حقوق خلقه. لا يليق أن تحرس صلاة الليل ثم تستهين بكلمة تهدم عرض إنسان، ولا أن تتبع مواضع صدقتك ثم تتساهل في مال حُبس عن صاحبه، ولا أن تكثر من النوافل وأنت تعرف أن في ذمتك مظلمة تستطيع إصلاحها ثم تؤجلها عامًا بعد عام.

ليس معنى ذلك أن من عليه حق لإنسان قد ضاعت حسناته الآن، ولا أن المؤمن الذي وقع في ظلم لا باب له إلى التوبة والرحمة. إنما الحديث يكشف خطر أن تلقى الله بحقوق تركتها قائمة مع قدرتك على السعي في إصلاحها، وأن المظالم ليست هوامش صغيرة حول دينك؛ يمكن أن تدخل في ميزان حسناتك نفسه.

وحتى لا يبقى في القلب وهم أن بعض الحقوق تضيع لأنها صغيرة أو لأن صاحبها لم يستطع المطالبة بها، تأتي السنة بمشهد آخر: «**لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**». رواه مسلم.

وهكذا يُغلق باب التوهم: لا يضيع الحق عند الله لأن صاحبه كان أضعف، أو لأن الأوراق ماتت، أو لأن الناس نسوا، أو لأن المطالبة سكتت. سقوط القدرة البشرية على الاستيفاء ليس سقوطًا للحق عند الله.

ولهذا فالإصلاح اليوم ليس تفضّلًا على المظلوم، بل نجاة لك أنت أيضًا. أنت تخرج من ذمتك شيئًا قبل أن يأتي يوم لا تملك فيه طريق الخروج نفسه.

ولهذا قال النبي ﷺ في كلمة قصيرة:

«إن الظلم ظلمات يوم القيامة». متفق عليه.

الظلم الذي ربما كان هنا قرارًا واحدًا، أو كلمة، أو مبلغًا، أو ضربة، أو استعلاء قوة، لا يصل إلى الآخرة بالحجم نفسه الذي بدا لك في الدنيا.

هناك يصير ظلمات.

من الظلمات إلى النور

لكن القرآن لا يريد أن يترك القلب في الظلمات فقط.

فالآية التي أمرت بالإصلاح بعد البغي لم تختم فقط بالتحذير من الظلم. قالت:

﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

بعد هذا الطريق كله لا تكون غاية القسط أنك صرت أقل ظلمًا فقط. وراء القيام به شيء أعلى من سلامة السجل: محبة الله.

أن تعدل في موضع كان يمكنك فيه أن تميل، وأن ترد حقًا كان يمكن أن يبقى معك، وأن تصلح أثرًا كان يمكنك أن تتركه للزمن، وأن تقول كلمة كاملة مع أن الناقص منها يخدمك؛ هذه ليست مجرد سلامة من إثم. هي طريق إلى محبة الله.

وهذا يغير نبرة القيام كلها. أنت لا تحرس الميزان فقط لأنك تخاف أن تظلم؛ تحرسه لأنك تريد ما عند الله.

قد لا يشكرك صاحب الحق على ما أصلحت، وربما لا يعرف أصلًا كم كان في استطاعتك أن تنقصه. وقد تراجع قرارًا ولا يعرف الناس أن المراجعة كلفتك شيئًا من نفسك. لكن الله يعلم. وحين لا تنتظر ثناءً ولا تخشى انكشافًا، يصير الخفاء أصدق موضع في هذه العبادة: تفعل ما يحبه الله لأنك تريد ما عنده.

ويأتي في السنة وعد يكمل هذا الضوء. قال رسول الله ﷺ:

«إن المقسطين عند الله على منابر من نور». رواه مسلم.

ثم وصفهم بأنهم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا.

ليسوا فقط قضاةً في مشهد بعيد عنك. الحديث يدخل القسط إلى الحكم، والأهل، وكل موضع ولاية. قد يكون في يدك بيت، أو فريق صغير، أو طالب، أو موظف، أو مال مشترك، أو طفلان ينتظران منك ألا تجعل الحب ميزانين.

وحينئذ لا يصبح العدل واجبًا ثقيلًا يجره المؤمن خوفًا من العقوبة فقط. يصير باب قرب. كل مرة غلبت فيها نفسك لتعدل في أهل بيتك، أو قاومت مصلحةً صغيرة حتى لا تنقص من تحت يدك، أو أعطيت من لا يحبك حقه من غير أن يعلم أحد ما جرى في داخلك؛ أنت لا تجمع «نقاط نزاهة» لنفسك، بل تسير في وصف أخبرك الله أنه يحبه.

وهذا من أدفأ ما في القسط بعد طول مجاهدته. النفس تتعب من مراقبة ميلها، ومن سماع ما لا تحب، ومن رد حق يوجعها، ومن قول كلمة ترفع غيرها. لكن كل هذا لا يذهب في فراغ؛ وراءه رب يحب المقسطين، ويكرمهم بنور عنده.

تأمل المقابلة:

الظلم ظلمات.

والمقسطون على منابر من نور.

هكذا ينفتح أمام القلب طريقان إلى يوم القيامة.

يمكن للإنسان أن يصنع في الدنيا ظلمةً صغيرة يراها هينة، ثم يجد لها هناك ظلمات. ويمكنه أن يقيم قسطًا لا ينتبه إليه أحد، ثم يرفعه الله به إلى نور.

وبين الظلمة والنور يقف معنى تعلمته مرة بعد مرة: الحق لا يتغير لأن موقعك منه تغير.

في كل مرة يتغير فيها وجه صاحب الحق، يبقى الحق هو هو: قد يكون عليك، أو لقريب، أو لخصم، وقد تأتيك مادته ناقصةً أو تأتيك كاملةً ثم تميل إلى إنقاص وزنه. وقد تعرف بعد زمن أنك أخطأت. الذي يتغير هو موضعك أنت؛ أما الميزان فلا ينبغي أن يتغير معه.

هذه لا ينبغي أن تبقى قواعد محفوظة في الذهن؛ إذا صارت حية في القلب صارت طريقةً أخرى في الوقوف أمام الناس وأمام الله.

حين تأتيك قضية لا يكون أول سؤال: من صاحبي؟ ولا: من خصمي؟ ولا: ماذا أريد؟ ولا: ما أول رواية سمعتها؟ ولا: كم أستطيع أن أنقص من غير أن يقال إنني ظلمت؟

يصبح هناك سؤال أسبق وأهدأ:

أين الحق؟

ثم سؤال أشق:

هل أقوم به لله؟

والقيام كلمة أثقل من أن تعني معرفة الجواب فقط. قد تعرف أين الحق ثم تسكت، وقد تعرفه ثم تؤجله، وقد تعرفه ثم تقول نصفه، وقد تعرفه ثم تترك غيرك يدفع ثمن خوفك أو مصلحتك.

والقيام الذي يطلبه القرآن لا يترك معرفة الحق جالسةً في القلب، يجعلها تقوم في القول والحكم والمال والولاية، ثم إذا وقع الخلل لم يجعل الرجوع فكرةً داخلية فقط، بل يسعى أن يقيم ما استطاع مما أفسد.

ولهذا كان التكليف:

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135].

لا تنتظر أن تصبح بلا هوى حتى تقوم، ولا بلا قرابة، ولا بلا خصومة، ولا بلا غضب، ولا بلا خطأ. ستعيش بهذه الأشياء كلها؛ لكن المطلوب أن يكون فوقها شيء لا تملكه هي: حكم الله وحقه.

وقد يخطئ القوام، لكن الفرق أن خطأه لا يتحول عنده إلى وطن يدافع عنه حتى الموت. إذا ظهر له الحق رجع. وإذا بان له أنه ظلم أصلح. وإذا بقي في ذمته حق لم يسمِّ الاحتفاظ به ثباتًا، ولم يسمِّ الاعتذار ضعفًا، ولم يسمِّ رد المال خسارة.

الرجوع إلى الحق نفسه جزء من القيام به.

الميزان الأخير

وفي يوم القيامة لن تبقى المسألة كما رأيناها هنا. لن يبقى قوي وضعيف في القدرة على عرض القضية، ولا صاحب بيان وصاحب عجز، ولا ورقة تضيع، ولا شهادة تكتم، ولا قرار يمر لأن صاحبه صاحب مكانة.

قال الله تعالى:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

في الدنيا تحاول أن تعرف، وتثبت، وتزن، وتقاوم نفسك، وقد تصيب وقد تخطئ. أما هناك فليس في الميزان نقص معلومات، ولا غضب، ولا فصاحة خصم، ولا نفوذ قريب.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: 47].

الشيء الذي استصغرته، والكلمة التي نسيتها، والجزء الذي نقصته، والحق الذي لم يطالب صاحبه به؛ لا يصير عدم مطالبة الناس به محوًا له عند الله.

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: 47].

وهذا مخيف لمن أحب بقاء المظالم، ومطمئن لكل من عجز في الدنيا أن يستوفي حقه. لا يحتاج المظلوم هناك إلى قوة خطاب، ولا يحتاج الحق إلى أن يكون كبيرًا حتى يأتي به الله.

﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

وتتجاوب الآيات في معنى واحد يمتد من معرفة الله إلى وقوف العبد بين يديه:

الله أخبر عن نفسه أنه **﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾** [آل عمران: 18]. وأنزل الكتاب والميزان **﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾** [الحديد: 25]. ثم خاطبك: **﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾** [النساء: 135]. ثم أخبرك أن يومًا سيأتي توضع فيه **﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾** [الأنبياء: 47] فلا تظلم نفس شيئًا.

بين ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18] و﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: 47] تقع حياتك كلها.

أنت لا تملك الميزان الأخير، لكنك تملك لحظتك قبل أن يأتي: حين يجذبك القريب، أو يدفعك الخصم، أو يريحك الهوى، أو تسبق إليك رواية ناقصة، أو تعرف حقًا ثم تشق عليك كلفته. في كل واحدة من هذه اللحظات يعود السؤال نفسه، لا بوصفه قاعدة تحفظها، بل عبودية تعيشها: أين الحق؟ وهل أقوم به لله؟

وما دام ذلك اليوم لم يأت بعد، ففي يدك نعمة عظيمة:

أن تعيد الوزن قبل أن يوضع الميزان.

أن ترد الحق قبل أن يؤخذ من حسناتك.

أن تصلح قبل أن تصبح الخصومة بين يدي الله.

أن تعدل خالصًا لله، فتلقاه بشيء يحبه.

فإذا أغلقت هذه الصفحات، فلا تبحث أولًا عن ظالم جديد حولك لتقيسه بما قرأت.

ابحث عن ميزانك أنت.

قد تجده في إنسان تغيّر وزنه عندك لقرب أو خصومة، أو في حكم أحببته قبل أن تعرف مادته، أو في حق أعطيته أقل من قدره، أو في مظلمة قديمة تستطيع اليوم أن تبدأ إصلاحها. لا يلزم أن تجد قائمة كاملة. يكفي أن يصدق قلبك في موضع واحد عرفه، ثم يبدأ.

ثم قم.

قم وأنت تعرف أنك لن تصبح كاملًا، وأن كثيرًا من عدلك قد لا يعرفه الناس، وأن القسط قد يكلفك مالًا، وصورةً، واعتذارًا، وتراجعًا، وخسارة انتصار كنت تحبه. يكفي أنك مأمور أن تكون من القوّامين، وأن الذي تقوم له لا يضيع عنده شيء.

لكن فوق كل ذلك وعد لا يحتاج المؤمن معه إلى مكسب آخر:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية
- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية
- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس